سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

النزول: مدنية.

فضل السورة: تَقَدَّم مقروناً بفضل سورة البقرة.

المقاصد:

١ ـ تقرير توحيد العبوديَّة والربوبيَّة.

٢ ـ إقامة الحجَّة على النصارى عامَّة، ونصارى نجران خاصَّة.

٣ ـ بيان عظمة الله تعالى في الخلق والتدبير والرزق.

٤ ـ الإيمان بكتب الله تعالى ورسله، والقدر خيره وشرِّه.

٥ ـ إبطال ألوهيَّة عيسى عليه السلام.

٦ ـ أهمِّية الاتحاد بين المسلمين، والتحذير من الفرقة والتشرذم.

٧ ـ عَرْضُ غزوة أُحد عرضاً دقيقاً، مصحوباً بالتوجيهات القرآنية المبيِّنَة لأسباب النصر القرآنية، وبناء مجتمع الإيمان وأفراده، وتميزه عن مجتمع الشرك والنفاق.

٨ ـ بيان جملة من الأحكام الشرعية، كفريضة الحج، وأحكام القتال، وتحريم الربا، وترهيب مانعي الزكاة.

٩ ـ بيان فَضْلِ الذكر والدعاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ
وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ
عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي
ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾

التفسير:

١ ـ هذه الحروف المقطعة تقدَّم الكلام عليها في مطلع سورة البقرة، وتشير إلى إعجاز القرآن.

٢ ـ فَضْلُ الآية:

قال النبي ﷺ: «**اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾** [البقرة: ١٦٣]، **وفاتحة آل عمران: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾**. (أخرجه الترمذي في السنن ٥/ ٥١٧ برقم ٣٤٧٨ ـ كتاب الدعوات، باب ٦٥. قال الترمذي: حسن صحيح. وقال الألباني: حسن. صحيح الترمذي برقم ٢٧٦٤).

التفسير:

الله لا معبود بحقٍّ إلا هو، الحي الذي له جميع معاني الحياة الكاملة كما يليق بعظمته، القائم على كلِّ شيء.

٣ ـ ٤ ـ نَزَّل عليك ـ أيُّها الرسول ـ القرآن بالحقِّ الذي لا ريب فيه، موافقاً لما قبله من كتب ورسل، وأنزل التوراة على موسى عليه السلام والإنجيل على عيسى عليه السلام، من قبل نزول القرآن؛ لأجل هداية الناس إلى الإسلام،

وأنزل ما يفرق بين الحقِّ والباطل. إنَّ الذين كَذَّبوا بآيات الله التي بَيَّنها الله في القرآن وغيره لهم عذاب عظيم موجع. والله عزيز في ملكوته، ذو انتقام ممَّن كذَّب بآياته.

٥ ـ ٦ ـ إنَّ الله يعلم كلَّ شيء، ظاهراً أو باطناً في الأرض والسماء، هو وحده الذي يخلقكم في الأرحام كما يشاء: من ذكرٍ أو أنثى، شقي أو سعيد. لا معبودَ بحقٍّ سواه، العزيز الذي لا يُغالَب، الحكيم في تدبيره.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ القرآن الكريم معجز.

٢ ـ تقرير هداية القرآن الكريم.

٣ ـ تقرير نزول القرآن والتوراة والإنجيل.

٤ ـ قال رسول الله ﷺ: «**أُنزلت صحف إبراهيم عليه السلام في أول ليلة من رمضان، وأُنزلت التوراة لسِتّ مَضَيْنَ من رمضان، والإنجيل لثلاثَ عشرةَ خلت من رمضان، وأُنزل الفرقان لأربع وعشرين خلت من رمضان**». (أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/١٠٧، وحسنه الألباني (السلسلة الصحيحة برقم ١٥٧٥).

٥ ـ تأكيد توحيد العبوديَّة.

٦ ـ وجوب مراقبة الله تعالى وخشيته في السر والعلن.

٧ ـ خَلْقُ الإنسان في رحم أُمِّه حسب مشيئة الله تعالى.

٨ ـ في الآية (٦) إخبار عن أمر مستقبلي في خلق الله تعالى الجنين في الرحم كيف يشاء.

٩ ـ ينظر: صورة مراحل خلق الإنسان في الرحم، كما في الملحق.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى
قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ
وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ
قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ
لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ
أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

التفسير:

٧ ـ هو الله وحده الذي أنزل عليك ـ يا محمَّد ـ القرآن: منه آيات واضحات الدلالة، هنَّ أصل الكتاب الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود. ومنه آيات أُخَرُ فيها اشتباه على كثير من الناس أو بعضهم في الدَّلالة. فمَنْ كان في قلبه شكٌّ وانحراف عن الحقِّ يأخذون من الآيات المتشابهات، فيستدلون بها على مقاصدهم الفاسدة، ويحرِّفونها على حسب مذاهبهم الباطلة ليُضِلُّوا الناس. ولا يعلم بيان المتشابه وحقيقته إلا الله تعالى. والعلماء المتضلِّعون في العلم يؤمنون بالمتشابه والمحكم؛ لأنَّه كلَّه من عند الله تعالى. وما يتعظ ويتدبَّر المعاني على وجهها الصحيح إلا أصحاب العقول المهتدية.

٨ ـ ٩ـ وهؤلاء العلماء يطلبون من الله الثبات على الحقِّ، فيتضرَّعون قائلين: يا ربَّنا لا تُمِلْ قلوبنا عن الحقِّ الذي هديتنا إليه، وارزقنا من عندك رحمة واسعة، إنَّك أنت الوهَّاب، كريم العطاء لِـمَنْ تشاء، ياربَّنا إنَّك ستجمع بين خَلْقك ليوم لا شكَّ فيه وهو يوم القيامة. إنَّ الله وعدُه حقٌّ، لا يُخلف ما وعدَ به العبادَ، كالبعث وغيره.

١٠ ـ إنَّ الذين كذَّبوا الله سبحانه لن تَدْفَعَ عنهم أموالهم ولا أولادهم عذاب الله، وأولئك البعداء عن الحقِّ هم حطب النار يوم القيامة.

١١ ـ حال الكافرين في تكذيبهم بآيات الله شبيهة بحال قوم فرعون

والذين من قبلهم من الكفَّار، كقوم نوح وهود وصالح أنكروا آيات الله، فعاقبهم الله بسبب تكذيبهم. والله شديد الأخذ، أليم العذاب.

قال ابن عاشور: «قوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ موقع كاف التشبيه موقع خبر لمبتدأ محذوف يدل عليه المشبَّه به، والتقدير: دأبُهم في ذلك كدأب آل فرعون، أي: عادتهم وشأنهم كشأن آل فرعون». (التحرير والتنوير: ٣/ ٣٣).

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ وجوب العمل بالمحكم.

٢ ـ وجوب الإيمان بالمتشابه.

٣ ـ العلماء الربَّانيون لا يعلمون المتشابه، لكنَّهم يؤمنون به.

٤ ـ على المؤمن أن يقف أمام المتشابهات من الآيات موقف العلماء الربانيين، فيفوِّض العلم بحقيقتها لله تعالى، ولا يتجاوز حدَّه من العلم.

٥ ـ حَذَّر النبيُّ ﷺ من الذين يتبعون المتشابه. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «تلا رسول الله ﷺ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمَّى الله، فاحذروهم». (صحيح مسلم ٤/ ٢٠٥٣ برقم ٢٦٦٥ ـ كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، واللفظ له. وصحيح البخاري ٨/ ٢٠٩ برقم ٤٥٤٧ ـ كتاب التفسير ـ سورة آل عمران).

٦ ـ تعليم الله تعالى المؤمنين الأدعية العظيمة، ومن أهمِّها طلب الثبات على الدين والحقِّ.

٧ ـ سمع النبي ﷺ قوماً يتدارؤون فقال: «**إنما هلك مَنْ كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، فلا تُكَذِّبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكِلُوه إلى عالمه**». يتدارؤون: يختلفون.

(أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم ٦٧٤١، وصححه محققه. وقال الألباني: صحيح (صحيح الجامع برقم ٢٣٧٠).

٨ ـ قال ابن عاشور: «من بدائع البلاغة أن ذكر في القصر فعل أنزل، الذي هو مختص بالله تعالى، إذ الإنزال يرادف الوحي، ولا يكون إلا من الله، بخلاف ما لو قال هو الذي آتاك الكتاب». (التحرير والتنوير: ٣/ ١٤).

٩ ـ قال ابن عاشور: «في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ تفصيل لإجمال اقتضاه الكلام السابق؛ لأنَّه لما قَسَّم الكتاب إلى محكم ومتشابه، وكان ذلك التقسيم باعتبار دلالة الألفاظ على المعاني، تَشَوَّفت النفس إلى معرفة تَلَقِّي الناس للمتشابه. أمَّا المحكم فتَلَقِّي الناس له على طريقة واحدة، فلا حاجة إلى تفصيل فيه». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢١).

١٠ ـ وجوب الدعاء والتضرُّع إلى الله تعالى.

١١ ـ أموال الكفَّار وأولادهم لن تنفعهم في الآخرة.

١٢ ـ الاعتبار بأحوال الأُمم الماضية.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ
ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ
رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾
زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ
وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ
حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ
﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ
وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

التفسير:

١٣ـ يُبَشِّر الله تعالى محمَّداً ﷺ ومهدِّداً الكافرين: قل لهم إنَّكم ستُهْزَمُون

في الدنيا، وتُجمعون وتُساقون إلى جهنَّم؛ لتكون مستقراً لكم ومأوى، وساء ذلك مستقراً ومأوى.

١٤ـ قل يا محمَّد للكفَّار: لقد كان لكم عبرة واضحة في طائفتين تقابلتا في معركة (بدر)، إحداهما: تقاتل من أجل نصرة دين الله، وهم المؤمنون، وعلى رأسهم محمَّد ﷺ، والأخرى: كفَّار قريش يرون المؤمنين ضِعفين عياناً. والله يُقَوِّي بنصره مَنْ يشاء. إنَّ في ذلك لموعظة لأصحاب البصائر الحكيمة.

١٥ـ حُسِّن للناس الميل نحو الشهوات من النساء، وجُبِلُوا على حُبِّ كثرة البنين، والأموال الكثيرة المكدَّسة من الذهب والفضَّة، والخيل الأصيلة المعلَّمة، والأنعام من الإبل والبقر والغنم، والمزارع الغنَّاء، ذلك ما يُمَتَّعُ به في الدنيا الزائلة. والله عنده حسن المنقلب وهو الجنَّة.

١٦ـ يأمر الله تعالى محمَّداً ﷺ بأن يبشِّر المؤمنين بالجنَّة ويُشَوِّقهم إليها: هل أُخبركم بخير من هذه الشهوات؟ لِـمَنْ خاف الله: جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها المياه العذبة من الأنهار ماكثين فيها أبداً، وفيها أزواج مُطَهَّرة من عيوب النساء ومن عيوب الرجال ـ فالطهارة حسِّية ومعنوية للجنسين ـ ولهم رضوان دائم من الله. والله عليم بأحوال العباد.

١٧ ـ ١٨ ـ من صفات المتقين أنَّهم يَدْعُون الله، يقولون: يا ربَّنا إنَّنا صَدَّقْنا بك، فلا تؤاخذنا على ما فَعَلْنا من ذنوب، ونَجِّنا من عذاب النار. وأنَّهم يصبرون على الابتلاء، ويصدقون في أقوالهم وأفعالهم، ويطيعون الله، وينفقون من أموالهم سرّاً وعلانية، ويستغفرون ربَّهم في وقت السحر آخر الليل.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ بشرى للنبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بالنصر.

٢ ـ في الآية (١٣) إخبار مستقبلي عن تأييد الله تعالى بنصره لِـمَنْ يشاء.

٣ ـ الاختبار بزينة الحياة الدنيا من النساء والبنين والأموال.

٤ ـ الآخرة أفضل وأمثل من زينة الحياة الدنيا.

٥ ـ المؤمن التقي لا تفتنه الشهوات.

٦ ـ الثناء على المستغفرين والصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين في سبيل الله تعالى.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

التفسير:

١٨ ـ شهادة عظيمة يشهد بها الله تعالى أنَّه المتفرِّد بالعبودية، وكذلك تشهد الملائكة والعلماء على قيامه بالعدل، لا معبودَ بحقٍّ إلا هو سبحانه، العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير مخلوقاته. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وشهادة الربِّ وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارة، وبفعله تارة... وأمَّا شهادته بفِعْلِه فهو ما نَصَبَه من الأدلَّة الدَّالَّة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل». (مجموع الفتاوى ١٧/ ١٦٨).

١٩ ـ يُخبر الله تعالى بأنَّه لا دين يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتِّباع الرسل فيما بعثهم الله به كلَّ حين حتى خُتِمُوا بمحمَّد ﷺ. وما اختلف اليهود والنصارى إلا من بعد ما جاءهم العلم بأمر النبي ﷺ في التوراة والإنجيل

فأنكروه حسداً، وبغى بعضهم على بعض. ومن يكذِّب بدلائل الله على توحيده فإنّ الله سريع الجزاء لعباده.

٢٠ ـ يُعَلِّم الله تعالى محمَّداً ﷺ كيف يناظر أهل الكتاب: فإن جادلوك في شأن الدين فقل لهم: إنَّني أخلصت عبادتي لله وحده، أنا ومَنِ اتبعني من المؤمنين. وقل لأهل الكتاب ولمشركي العرب: هل قَبِلْتم الإسلام؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا إلى الصراط المستقيم، وإن أعرضوا فإنَّما عليك أن تُبَلِّغَهم ما أُنزل إليك. والله عليم بمَنْ يستحق الهداية ممَّنْ يستحق الضلالة، لا يخفى عليه شيء.

٢١ ـ ٢٢ ـ إنَّ الذين يُكَذِّبون بدلائل الحق، ويقتلون الأنبياء ظلماً، ويقتلون الذين يأمرون بالعدل، فبشِّرهم بعذاب موجع. أولئك البعداء عن رحمة الله الذين يتصفون بتلك الجرائم الخطيرة بطلت حسناتهم في الدارَين، وليس لهم ناصر من عذاب الله تعالى.

قال ابن عاشور: «قوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ظرف مستقر في موضع الحال المؤكِّدة لمضمون جملة ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إذ لا يكون قَتْلُ النبيين إلا بغير حق. والمقصود من هذه الحال زيادة تشويه فِعْلِهم». (التحرير والتنوير: ٣/ ٦٢).

٢٣ ـ سبب النزول:

أخرج الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل رسول الله ﷺ بيت المِدْراس على جماعة من اليهود، فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو، والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال: **على ملة إبراهيم ودينه**. فقالا: فإن إبراهيم كان يهودياً! فقال رسول الله ﷺ: **فهلمُّوا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم!** فأبيا عليه، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾. (التفسير الصحيح ٢/ ١٨).

التفسير:

يُخاطب الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ مُنْكِراً على اليهود والنصارى: ألا تعجب من هؤلاء الذين يَدْعُون إلى الحقِّ المذكور في التوراة والإنجيل؛ ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، فترفض طائفة منهم، وهم مُعْرِضون عن سماعه؟

٢٤ ـ ٢٥ ـ هذا الإعراض عن الحقِّ بسبب ادِّعائهم أنَّهم لن يُعَذَّبوا إلا أياماً قليلة، فقد خدعوا أنفسهم بهذا الكذب. فكيف يكون حالهم يوم بعثهم الذي لا شكَّ في وقوعه، ونالت كلُّ نفس جزاءها العادل على ما عملت، وهم لا يُظلمون مثقال ذرة؟.

قال ابن عاشور: (كيف) هنا خبر لمحذوف دلَّ على نوعه السياق، و (إذا) ظرف منتصب بالذي عمل في مظروفه، وهو ما في (كيف) من معنى الاستفهام التفظيعي كقولك: كيف أنت إذا لقيت العدو؟ (التحرير والتنوير: ٣/ ٦٦).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فُتِحَتْ خيبر أُهديت للنبي ﷺ شاة فيها سُمٌّ، فقال النبي ﷺ: **«اجمعوا لي من كان ها هنا من يهود»**، فجمعوا له، فقال: **«إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقِيَّ عنه؟»** فقالوا: نعم. قال لهم النبي ﷺ: **«من أبوكم؟»** قالوا: فلان. فقال: **«كذبتم، بل أبوكم فلان»**. قالوا: صدقت. قال: **«فهل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألت عنه؟»** فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كَذَبْنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم: **«من أهل النار؟»** قالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفونا فيها. فقال النبي ﷺ: **«اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً»**. ثم قال: **«هل أنتم صادقِيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟»** قالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: **«هل جعلتم في هذه الشاة سُمّاً؟»** قالوا: نعم. قال: **«ما حملكم على ذلك؟»** قالوا: إن كنت كاذباً نستريح، وإن كنت نبياً لم يَضُرَّك.

(الصحيح برقم ٣١٦٩ ـ الجزية والموادعة ـ باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم؟).

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد تضمَّنَتْ هذه الآية ثلاثة فصول: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّه قائم بالقسط، وأنَّه العزيز الحكيم، فتضمَّنت وحدانيته المنافية للشرك، وتضمَّنت عدله المنافي للظلم، وتضمَّنت عزَّته وحكمته المنافية للذلِّ والسفه، وتضمَّنت تنزيهه عن الشرك والظلم والسفه، ففيها إثبات التوحيد». (مجموع الفتاوى ١٤/ ١٨٤).

٢ ـ قال ابن عاشور: «هذا شروعٌ في أول غرض أنزلت فيه هذه السورة:

غرض مُحاجَّة نصارى نجران. فهذا الاستئناف من مناسبات افتتاح السورة بذكر تنزيل القرآن والتوراة والإنجيل، ثم بتخصيص القرآن بالذكر وتفضيله بأنَّ هَدْيَه يفوق هدي ما قبله من الكتب». (التحرير والتنوير: ٣/ ٤٥).

٣ ـ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإثبات شهادة أولي العلم يتضمَّن أنَّ الشهادة له بالوحدانية يشهد بها له غيره من المخلوقين، الملائكة والبشر، وهذا متَّفق عليه، يشهدون أن لا إله إلا الله، ويشهدون بما شهد به لنفسه». (مجموع الفتاوى ١٤/ ١٨٠).

٤ ـ بيان فضل العلماء.

٥ ـ وجوب التحاكم إلى شرع الله تعالى.

٦ ـ الرد على مزاعم اليهود الذين زعموا أنَّهم لن تمسَّهم النَّار إلا فترة يسيرة.

٧ ـ الحذر من الاختلاف في الدِّين، والتفرُّق والتشرذم.

٨ ـ قال ابن عاشور: «الاستفهام المستعمَلُ في الاستبطاء والتحضيض، كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]. وجيء بصيغة الماضي في قوله: ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾ دون أن يقول: أتُسْلِمون على خلاف مقتضى الظاهر، للتنبيه على أنه يرجو تحقُّق إسلامهم، حتى يكون كالحاصل في الماضي». (التحرير والتنوير: ٣/ ٥٩).

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ
وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي
ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا
يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ
أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِي
صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا
وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ
فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن
تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

التفسير:

٢٦ ـ ٢٧ ـ يُرشد الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ والمؤمنين كيف يَدْعُونه ويُعَظِّمونه؟ فيقولون: يا الله، يا مالك الملك، تهب الملك والمال لِـمَنْ تشاء من عبادك، وتمنع مَنْ تشاء، وترفع مَنْ تشاء، وتخفض مَنْ تشاء، بيدك الخير وحدك، إنَّك على فِعْل كلِّ شيء قدير، لا يقدر على ذلك غيرك. تُدْخِلُ ما نَقَّصْتَ من ساعات الليل في ساعات النهار، فتَزيد من ساعات النهار، وتُدْخِلُ ساعات النهار في ساعات الليل، فتَزِيد من ساعات الليل. وتُخرج الشيء الحيَّ من الشيء الميت الذي لا حياة فيه، كإخراج النبات الأخضر من الحبوب اليابسة، وتخرج الشيء الميت من الحي، كإخراج الحَبِّ اليابس من النبات الأخضر، وتعطي مَنْ شئت مِن المال ما لا يقدر على إحصائه.

٢٨ ـ لا تتخذوا ـ أيُّها المؤمنون ـ الكفَّار ظَهْراً وأنصاراً، ومَنْ يتولَّهم فقد برئ من الله، وبرئ الله منه، إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتضمروا لهم العداوة فلا حرج في ذلك. ويُخَوِّفكم الله من نفسه أن تخالفوه. وإلى الله مرجعكم وحسابكم.

٢٩ ـ يأمر الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ أن يخبر المؤمنين: إن تكتموا ما استقرَّ في قلوبكم أو تظهروه، فإنَّ الله قد أحاط به علماً، وأحاط بكلِّ شيء في السموات السبع والأرضين السبع. والله على كلِّ شيء قدير لا يتعذَّر عليه شيء أراده.

٣٠ ـ فليحذر الذين يخالفون أمره يوم القيامة، إذ تجد كلُّ نفس عملها من خيرٍ مهما قلَّ أو كثر مشاهداً، وتجد ما اقترفته من ذنوب تتمنَّى أن تكون بعيدة عن ذلك العمل بُعْداً شاسعاً خوفاً من الحساب، ويحذِّركم الله نفسه أن تسخطوها عليكم بفعل المعاصي، والله عظيم الرأفة بعباده.

٣١ ـ ٣٢ ـ يأمر الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ أن يبلِّغ كلَّ مَن ادَّعى أنَّه يحبُّ الله تعالى حقّاً فعليه اتِّباعه وتصديقه ﷺ، فإنَّ ذلك علامة محبَّة الله لهم، فهؤلاء يَحْظَون بمحبَّة الله تعالى ومغفرته لذنوبهم. والله عظيم المغفرة لذنوب عباده، كثير الرحمة بهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ﴾ جواب الأمر في قوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾، وهو بمنزلة الجزاء مع الشرط، ولهذا جزم، وهذا ثواب عملهم، وهو اتِّباع الرسول، فأثابهم على ذلك بأن أحَبَّهم، وجزاء الشرط وثواب العمل ومُسَبّب السبب لا يكون إلا بعده لا قبله». (مجموع الفتاوى ٧/ ٤٤٣).

ثمَّ أمرهم بطاعة الله ورسوله في جميع الأوامر والنواهي، فإن أعرضوا فإنَّ الله لا يحبُّ الجاحدين للحقِّ ويسخط عليهم. عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلاً سأل النبي ﷺ: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: «ما أَعْدَدْتَ لها؟» قال: ما أعددتُ لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. قال: «أنتَ مع من أحببت». (صحيح البخاري ١٠/ ٥٥٧ برقم ٦١٧١ ـ كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله).

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ في الآية (٢٦) إخبار عن أمر مستقبلي في إعطاء الله تعالى الملك لِـمَنْ يشاء، وإخبار مستقبلي عن نزع الله تعالى الملك لِـمَنْ يشاء، وإخبار عن أمر مستقبلي في معزَّة الله تعالى لِـمَنْ يشاء، وإخبار مستقبلي عن إذلال الله تعالى لِـمَنْ يشاء.

٢ ـ تعليم الله تعالى النبي ﷺ وأُمته بهذا الدعاء العظيم.

٣ ـ فضل الدعاء بهاتين الآيتين العظيمتين.

٤ ـ قال ابن عاشور: «خُصَّ الخير هنا لأنَّ المقام مقام تَرَجِّي المسلمين الخير من الله». (التحرير والتنوير: ٣/ ٦٨).

٥ ـ في الآية (٢٧) إخبار عن أمر مستقبلي في رزق الله تعالى لِـمَنْ يشاء بغير حساب.

٦ ـ ينظر: صورة ولوج وتكوير الليل والنهار، كما في الملحق.

٧ ـ تحريم موالاة المؤمنين للكفار، وهذه الموالاة المحرمة لها عدة حالات منها:

أ ـ الموالاة بالقلب كمَنْ يواليهم وقلبه متعلق بهم، ويُظهر للمسلمين خلاف ما يبطنه لهم من العداوة.

ب ـ تحسين صورة الكافرين في نفوس المؤمنين.

ج ـ الموالاة الناتجة عن التساهل مع الكفار في تركهم ينشرون الردة عن الإسلام.

د ـ التواطؤ معهم على إضعاف المؤمنين.

٨ ـ قال ابن عاشور: «انتقال إلى الترغيب بعد الترهيب على عادة القرآن، والمناسبة أن الترهيب المتقدم ختم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] والرأفة تستلزم محبة المرؤوف به الرؤوف، فجعل محبة الله فعلاً للشرط في مقام تعليق الأمر باتباع الرسول عليه مبني على كون الرأفة تستلزم المحبة». (التحرير والتنوير: ٣/ ٧٨).

٩ ـ محبَّة الله تعالى تكون بإخلاص العبوديَّة له سبحانه.

١٠ ـ كثير من الناس اليوم يَدَّعون محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ وهم قائمون على المعاصي والمنكرات وكبائر الذنوب، وهذا مخالف لدعواهم فإن المُحِبَّ لِـمَنْ يحب مطيع، فعلى هؤلاء أن يتقوا الله ويرجعوا عمَّا هم فيه حتى تصدق دعواهم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ
بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ
مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ
وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾
فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ
وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ
ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ
مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ
ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ
ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ
وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾

التفسير:

٣٣ ـ ٣٤ ـ إنَّ الله اختار الأنبياء آدم ونوحاً والمؤمنين من ذريَّة إبراهيم وذريَّة عمران، كمريم وعيسى، وفَضَّلهم على العالمين في زمانهم. وهؤلاء الأنبياء والرسل سُلالة متواصلة في النيَّة والإخلاص لله والتوحيد له. والله سميع لأقوال العباد، عليم بأفعالهم.

٣٥ ـ واذكر ـ أيُّها الرسول ـ قِصَّة امرأة عمران واسمها: (حنة بنت فاقوذ) حين حملت دعت: يا ربِّ إنِّي نذرت لعبادتك ما أحمله في بطني خالصاً مفرغاً للعبادة ولخدمة (بيت المقدس) فتقبَّل منِّي نَذْري. إنَّك أنت السميع لدعائي، العليم بقصدي.

٣٦ ـ وحينما وَلَدَت امرأة عمران ابنتها (مريم) قالت متأسِّفة: يا ربِّ إنِّي وضعتها أنثى ـ والله تعالى أعلم بما ولدت ـ وليس الذَّكَرُ الذي يصلح لخدمة

(بيت المقدس) كالأنثى التي لا تستطيع ذلك، وإنِّي سَمَّيْتُ هذه الأنثى (مريم)، وإنِّي أجيرها بك وذريتها من الشيطان المطرود من رحمة الله.

٣٧ ـ فتقبَّلَ الله مريم نَذْراً لأُمِّها أحسن القبول، وتَوَلَّى مريم بالعناية، وأنبتها نباتاً حسناً وشكلاً مليحاً، وهيَّأ الله تعالى زكريا (زوج خالتها) أن يتكفَّل مريم، وأسكنها في مكان عبادته، وكان كلَّما جاء مريم لرعايتها وجد عندها رزقاً كريماً فيسألها متعجِّباً: يا مريم من أين لك هذا الرزق؟ فأجابت: هو رزق من فضل الله. إنَّ الله يرزق مَنْ يشاء من عباده بغير إحصاء ولا حدود.

٣٨ ـ لمَّا رأى زكريا عليه السلام الرعاية الربَّانية لمريم دعا: يا ربِّ ارزقني من فضلك ولداً مباركاً، إنَّك يا الله تسمع دعاء مَنْ دعاك.

٣٩ ـ فاستجاب الله له دعاءه وناداه جبريل عليه السلام ومَنْ معه من الملائكة حال كون زكريا عليه السلام قائماً في المحراب يُصلِّي: إنَّ الله يبشِّرك بأنَّك سترزق بولد اسمه (يحيى) مصدِّقاً بعيسى ابن مريم، وسيكون يحيى سيداً في قومه، زاهداً في شهوة النساء، وممتنعاً عن المُحَرَّمات، ونبيَّاً من أهل الصلاح.

٤٠ ـ سأل زكريا ربَّه مُتحقِّقاً من البشارة: يا ربِّ كيف يُوْجَدُ لي غلام وقد أدركَتْني الشيخوخة، وامرأتي عقيم لا تلد؟ فأجابه ربُّه: مثل ذلك الخلق غير المعتاد يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة.

قال الشيخ الشنقيطي: «لم يبيِّن هنا القدر الذي بلغ من الكِبَر، ولكنه بَيَّن في سورة مريم أنه بلغ من الكبر عِتِيّاً. وذلك في قوله تعالى عنه: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] والعِتِيُّ: اليبس والقحول في المفاصل والعظام من شدة الكبر».

٤١ ـ طلب زكريا أن يطمئنَّ: يا ربِّ اجعل لي علامة أستأنس بها على تحقيق البشارة؟ فأُجيب: بأنَّ علامتك عجزك عن كلام الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة، واذكر خالقك ذِكراً كثيراً، وسَبِّحه تعظيماً وتنزيهاً له في الصباح والمساء.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ فضل الله تعالى على مَنْ يشاء من عباده الذين اصطفى، ومنهم مريم الصدِّيقة.

٢ ـ بشرى الاستجابة لزكريا عليه السلام بأن يَهَبَ الله تعالى الذرية لِـمَنْ دعاه من الصالحين.

٣ ـ الاستفادة من القصص في استجلاب الخير، ومنه ما ذُكِرَ في هذه القصة العظيمة.

٤ ـ فضل الدُّعاء وذِكْرِ الله تعالى.

٥ ـ في الآيتين (٣٣ ـ ٣٤) تنبيه على مكانة الأسرة المسلمة عند الله تعالى وأهميتها في تماسك المجتمع المسلم وقوته. وأن آل إبراهيم وآل عمران أسرتان مباركتان فيهما الأنبياء والصالحون.

٦ ـ في الآيتين (٣٦) و(٣٨) أصل من أصول تربية الأولاد وهو الاستعانة بالله على تربيتهم ورعايتهم، وطلب التوفيق من الله تعالى في تحمل مسؤولية تنشئتهم، والدعاء لهم بالصلاح والفلاح.

٧ ـ في الآية (٣٧) دليل على صحة قاعدة السلف التربوية «التأديب من الآباء، والصلاح من الله تعالى».

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾
يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا
كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ
قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ
يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ
﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم
بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ
وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى
بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ
وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾
إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

التفسير:

٤٢ ـ ٤٣ ـ هذا إخبار من الله تعالى للنبيِّ ﷺ بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك: إنَّ الله اجتباكِ وزكَّاكِ من كلِّ عيب، واجتباك مرَّة أخرى لتفضيلك على نساء العالمين، يا مريم أكثري من الطاعة والشكر والخضوع لربِّكِ، وصَلِّي مع المصلِّين.

٤٤ ـ ذلك الذي قصصناه عليك ـ يا محمَّد ـ من عظيم أخبار الغيب التي أعلمناك إيَّاها، وما كنت مع المتنازعين حين اقترعوا على حضانة مريم بإلقاء أقلامهم، فمَنْ وقف قلمه فهو الكافل، فوقف قلم زكريا، وما كنت عندهم إذ يختلفون، ويتسابقون على ثواب الله.

٤٥ ـ واذكر ـ أيُّها الرسول ـ حين نادت الملائكة مريم: إنَّ الله يبشِّرك بمولود يحصل بكلمة من الله وهي ﴿كُن﴾ فيكون بأمر الله تعالى، اسمه

المسيح عيسى ابن مريم، ذو جاه عظيم في الدنيا بالنبوَّة، وفي الآخرة بعُلُوِّ الدرجة؛ لأنَّه من المقرَّبين إلى الله يوم القيامة. قال الشيخ الشنقيطي: «لم يبين هنا هذه الكلمة التي أطلقت على عيسى؛ لأنَّها هي سبب في وجوده، من إطلاق السبب وإرادة مسببه، ولكنه بَيَّنَ في موضعٍ آخر أنها لفظة ﴿كُن﴾، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]».

٤٦ ـ ومن خصائصه في الدنيا: أنَّه يكلِّم الناس وهو طفل رضيع في المهد حين قال: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٣]، ويُكلِّم الناس في حالة الشيخوخة حين يوحي الله إليه، وهو من الصالحين في قوله الفصيح، وعمله الصحيح.

٤٧ ـ تعجَّبت مريم من وجود الولد دون زواج: كيف يكون لي ولد ولم يقربني رجل؟! فأجابها الوحي: مثل تلك المعجزة يخلق الله ما يشاء من العدم، إذا أراد شيئاً فإنَّما يأمره بكلمة ﴿كُن﴾ فيكون كما أراد.

٤٨ ـ ويُعَلِّمه الكتابة وسنن الأنبياء، والتوراة المنزلة على موسى عليه السلام، والإنجيل المنزل عليه.

٤٩ ـ ويبعثه رسولاً إلى ذريَّة يعقوب عليه السلام داعياً لهم: أنِّي أتيتكم ببرهان من خالقكم يدلُّ على صدق رسالتي، حيث إنِّي أصوِّر لكم من الطين مثل شكل الطير، فأنفخ في تلك الصورة، فتصير طيراً بمشيئة الله، وأُشفي الأعمى والمصاب بالبرص، وأُحيي مَنْ كان ميتاً بإذن الله، وأُخبركم بما أكلتم، وما خبَّأتم في مساكنكم. إنَّ في ذلك البرهان البعيد عن الشكِّ لدليلاً واضحاً على صدق نبوَّتي إن كنتم مصدِّقين بالله ورسله.

٥٠ ـ وأُرسلت إليكم مُصَدِّقاً لما سبقني من شريعة التوراة، ولأبيح لكم بعض ما حُرِّم عليكم من قبل، وجئتكم بمعجزات من ربِّكم، فخافوا الله وأطيعوني، وتابعوني في ديني.

٥١ ـ إنَّ الله الذي أرسلني إليكم وحده ربِّي وربُّكم، فاعبدوه وحده لا شريك له، وهذا هو الطريق القويم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ بيان فضل مريم عليها السلام.

٢ ـ تقرير نبوة عيسى عليه السلام وبيان فضله.

٣ ـ بيان فضل الركوع والسجود.

٤ ـ هذه القصَّة من دلائل النبوَّة؛ فهي من قبيل الإخبار بغيب الماضي.

٥ ـ إظهار عظمة قدرة الله تعالى في خلق عيسى عليه السلام بقوله (كن) فيكون.

٦ ـ الردُّ على مَنْ قال بعقيدة التثليث بأن عيسى على التوحيد، ويدعو إلى توحيد العبودية لله تعالى.

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ
ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا
مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى
مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ
نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

التفسير:

٥٢ ـ فلمَّا دعا عيسى عليه السلام اليهود واستشعر منهم الإصرار على التكذيب نادى: مَنْ أعواني في الدعوة إلى الله؟ قال أصحاب عيسى الأصفياء: نحن أنصار دين الله، صَدَّقْنا بالله، واشهد لنا بأنَّا منقادون لله وحده.

٥٣ ـ ودَعوا: يا ربَّنا إنَّنا صدَّقنا بالذي أنزلت من الوحي، وامتثلنا أوامر رسولك عيسى عليه السلام، فاجعلنا من الذين شهدوا لك بالوحدانية.

٥٤ ـ وتآمر كفرة اليهود على عيسى عليه السلام، وقرَّروا أن يقتلوه، ومكر الله بهم بأن ألقى الله شبَهَ عيسى على رجل منهم، فقتلوه وظنُّوا أنَّهم قتلوا عيسى، ورفع الله عيسى إلى السماء، ولهذا قال: والله خير الماكرين؛ لأنَّه مكرٌ بحق، وأعظم من مكرهم.

٥٥ ـ يُذكِّر الله تعالى رسوله محمَّداً صلى الله عليه وسلم حين أنقذ الله تعالى عيسى عليه السلام قال: يا عيسى إنِّي قابضك من الأرض، ورافعك إليَّ، ومنجيك من خبث الكفَّار ومكرهم، وجاعل الذين صَدَّقوا بنبوَّتك منصورين على الذين جحدوا نبوَّتك إلى قيام الساعة، ثمَّ يكون مآلُكم إليَّ جميعاً، فأقضي بين المؤمنين والكافرين فيما اختلفوا فيه من أمرك.

٥٦ ـ فأمَّا المكذِّبون بالله ورسله فأعذِّبهم عذاباً شديد الوجع في الدنيا بشتَّى العقوبات، وفي الآخرة بجهنَّم، وليس لهم أعوان يدفعون عنهم عذاب نار جهنَّم.

٥٧ ـ وأمَّا المؤمنون الذين يقومون بالأعمال الصالحة فيعطيهم الله ثوابهم تامَّاً. والله لا يحبُّ المعتدين المخالفين أمره.

٥٨ ـ ذلك الخبر العظيم الذي نقرؤه عليك ـ يا محمَّد ـ بواسطة جبريل من البراهين الواضحة التي تدلُّ على صدق نبوَّتك، وصحة القرآن ذي الحكمة الفاصلة بين الحقِّ والباطل.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ مَنْ يمكر بالأنبياء والدعاة فإنَّ الله تعالى يمكر به عاجلاً أو آجلاً.

٢ ـ إنَّ الله تعالى ناصر رسله بأسباب متعددة، ومن أهمِّها ما يُهَيِّئُه لهم من الأنصار المؤمنين.

٣ ـ تقرير رَفْع عيسى عليه الصلاة والسلام حياً، خلافاً للذين يعتقدون أنه قُتِلَ مصلوباً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

٤ ـ جزاء المكذِّبين للرسل العذاب الشديد في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ
أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن
تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

التفسير:

٥٩ ـ إنَّ شَبَهَ عيسى في خلقه من غير أب كشبه آدم خلقه الله من تراب، ثمَّ أوجده بكلمة (كن) فكان.

٦٠ ـ ٦١ ـ هذا هو الحقُّ الذي جاء من ربِّك ـ أيُّها الرسول ـ في شأن عيسى عليه السلام، فاستمر على يقينك، ولا تكن من المرتابين في بطلان اعتقاد اليهود بشأن عيسى عليه السلام. فمَنْ جادلك في شأن عيسى بعد ما وضح لك الحقُّ من الوحي فقل لهم: هَلُمُّوا نجتمع ونُحْضِرُ الأبناء والنساء من الطرفين، ثم نتضرَّع إلى الله بالدعاء أن يُنْزِلَ عقوبته ولعنته على الكاذبين في شأن عيسى عليه السلام.

٦٢ ـ يؤكِّد الله تعالى أنَّ خبر عيسى عليه السلام الذي أنبأتك به هو الحقُّ الواقع، وليس ثمة معبود يستحقُّ العبادة إلا الله وحده. وإنّ الله لهو العزيز في ملكه، الحكيم في أقواله وأفعاله.

٦٣ ـ فإن أعرضوا عن هذا الحق فهذا هو الفساد. والله عليم بالمفسدين وسيعاقبهم.

٦٤ ـ يأمر الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ أن يدعو اليهود والنصارى إلى كلمة عدل وهي: لا إله إلا الله، فنلتزم بها جميعاً، وألا تكون عبادتنا إلا لله وحده، ولا نجعل له أيَّ شريك، ولا يطيع بعضنا بعضاً في عبادة لغير الله، فإن أعرضوا عمَّا دُعُوا إليه فقولوا لهم: اشهدوا علينا بأنَّا مسلمون، منقادون لله.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ اشتراك آدم وعيسى عليهما السلام في كيفية الخلق من غير أب، وخَلْقُ آدم أعجب من خَلْق عيسى.

٢ ـ قال ابن عاشور: «يستفاد من قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إلى آخره، التعريض بالذين عبدوا المسيح كلهم». (التحرير والتنوير: ٣/ ١١٧).

٣ ـ مشروعية المباهلة، وهي الابتهال إلى الله تعالى أن يجعل اللعنة على الكاذبين.

٤ ـ التنصيص على أنَّ هذا القصص هو الحق فيه إشارة إلى القصص غير الحق في التوراة والإنجيل.

٥ ـ وصف الرافضين لدعوة الإيمان بالمفسدين.

٦ ـ في الآية (٦٤) دليل على جواز استخدام الحوار والحجاج مع غير المسلمين عموماً وأهل الكتاب خصوصاً.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا
تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ
وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا
وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ
وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ
وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ
ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾

التفسير:

٦٥ ـ يُوَبِّخ الله تعالى اليهود والنصارى الذين قالوا: إنَّ إبراهيم كان على مِلَّتهم، فيقول لهم: لِمَ تُجادلون في ذلك وما نزلت التوراة والإنجيل إلا من بعد عهد إبراهيم؟ أفلا تدركون فساد قولكم؟

٦٦ ـ يُنَبِّه الله تعالى أهل الكتاب، ويُوَبِّخهم أنَّهم قد جادلوا محمَّداً ﷺ

فيما لهم به علم من التوراة والإنجيل، فلماذا تجادلون فيما ليس لكم به علم، وهو الزعم بأنَّ إبراهيم عليه السلام كان على دينكم؟ والله يعلم الحقَّ، وأنتم لا تدركونه.

٦٧ ـ ٦٨ ـ تكذيبٌ من الله دعوى الذين جادلوا في إبراهيم بأنَّه كان على مِلَّتهم، بل كان مُتَّبعاً لأمر الله، متذلِّلاً له، وما كان من الذين يشركون مع الله غيره. إنَّ أحقَّ الناس بالانتماء لإبراهيم هم الذين اتبعوه على دينه، وهذا النبي ـ محمَّد ـ والذين صَدَّقوا به. والله ناصر الذين صَدَّقوا بالله ورسله.

٦٩ ـ يُخبر الله تعالى عن حسد جماعة من اليهود بأنَّهم تمنَّوا لو يَصُدُّون المسلمين عن دينهم، فيهلكونهم، وما يهلكون بفعلهم هذا إلا أنفسهم وأتباعهم، وما يدركون ذلك.

٧٠ ـ ينكر الله على اليهود والنصارى: لِمَ تُكَذِّبون بالقرآن والمعجزات التي أُنزلت على محمَّد صلى الله عليه وسلم وأنتم تعلمون أنَّ ذلك حقّ؟

٧١ ـ سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسنديهما الحسن، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عبد الله بن الصيف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكفر به عشية، حتى نُلَبِّس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنع، فيرجعوا عن دينهم! فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧١ ـ ٧٣]. (التفسير الصحيح ٢/ ٣٨).

التفسير:

ثمَّ يُوَبِّخهم بقوله: لِمَ تخلطون بين الحقِّ المنزل في الكتب السماوية، والباطل الذي فيه التحريف، وتُخْفُون الحقَّ ومنه صفة النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأنتم تُوقنون بذلك؟

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ وجوب العبودية لله تعالى على جميع البشر الذين بلغتهم الدعوة.

٢ ـ قال ابن عاشور: «قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أفاد الاستدراك بعد نفي الضدِّ حصراً لحال إبراهيم فيما يوافق أصول

الإسلام، وعطف قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ليئسَ مشركو العرب من أن يكونوا على مِلَّة إبراهيم». (التحرير والتنوير: ١٢٢ ـ ١٢٣).

٣ ـ إبطال مزاعم أهل الكتاب أنَّ إبراهيم عليه السلام على مِلَّتِهم؛ لأنَّه توفي قبل نزول التوراة والإنجيل، بل هو على الإسلام.

٤ ـ تحريم الكذب على الله تعالى وعلى أنبيائه صلوات الله عليهم، وتحريم المُحاجَّة بلا علم.

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

التفسير:

٧٢ ـ ٧٣ ـ وقال الضالُّون من علماء اليهود لأتباعهم: صَدِّقوا بالقرآن أوَّل النهار، ثمَّ اكفروا به آخر النهار؛ كي يرتدَّ المسلمون عن دينهم، ولا تُصَدِّقوا إلا مَنْ كان يهودياً. ثمَّ أمر الله تعالى محمَّداً ﷺ أن يردَّ عليهم. قل: إنَّ أمر الهداية إلى الحقِّ ليس بأيديكم، وإنَّما هو هدى الله يهدي إلى الحقِّ مَنْ يشاء. ثمَّ ذكر حسد اليهود وقولهم: لا تظهروا ما عندكم من العلم

للمسلمين فيتعلَّمون، فيساوونكم في العلم. ثمَّ ردَّ عليهم: قل يا محمَّد إنَّ الهداية والعطاء كلّه بيد الله وتحت تصرُّفِه يعطيه مَنْ يشاء. والله واسع الإنعام، عليم بمَنْ يستحقُّ الإكرام.

٧٤ ـ يبشِّر الله المؤمنين بأنَّه يختص مَنْ يشاء من خلقه بالنبوَّة والهداية إلى الإيمان، والله صاحب الفضل العظيم على عباده.

٧٥ ـ يُخبر الله تعالى عن أهل الكتاب: أنَّ منهم طائفة أمناء، لو أمَّنتهم على مالٍ كثير يُؤَدُّونه إليك، ومنهم طائفة لو أمَّنتهم على دينار أو أقلَّ لا يَرُدُّونه إليك، إلا ما دمت ملازماً لهم بالمطالبة؛ وذلك بسبب سوء اعتقادهم بأنَّه لا حرج عليهم في ظلم العرب والأُمم الأخرى غير اليهود، واستباحة أموالهم. وهذا القول افتراء على الله، وهم يعلمون أنَّهم مفترون.

٧٦ ـ حقّاً لقد افتروا على الله الكذب، ولكن مَنْ أوفى بعهد الله من القيام بحقوق الله وحقوق خَلْقِه، وخاف الله بامتثال أوامره، فإنَّ الله يحبُّ الذين يَتَّقونه بأداء الحقوق التي أوصى بها سبحانه.

٧٧ ـ سبب النزول:

عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما قال: أقام رجل سِلْعَتَه، فحلف بالله لقد أُعطي بها ما لم يُعطها، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾.

(صحيح البخاري ٥/٢٨٦ برقم ٢٦٧٥ ـ الشهادات، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن حلف يمين صبرٍ؛ ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان**»، فأنزل الله تصديق ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ قال: فدخل الأشعث بن قيس وقال: ما يُحَدِّثك أبو عبد الرحمن؟ قلنا كذا وكذا، قال: فيَّ أُنزلت، كانت لي بئر في أرض ابن عَمٍّ لي، قال النبي ﷺ: «**بيِّنتك أو يمينه**». فقلت: إذاً يحلف يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «**مَنْ حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم وهو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان**».

(صحيح البخاري ٨/ ٦٠ ـ ٦١ كتاب التفسير، باب سورة آل عمران ـ الآية... برقم ٤٥٤٩ ـ ٤٥٥٠، وصحيح مسلم ١/ ١٢٢ ـ ١٢٣برقم ١٣٣٨ ـ كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار).

التفسير:

إنَّ الذين يعتاضون عمَّا ائتمنهم الله عليه من العهود والوصايا العظيمة بحطام الدنيا القليل لا نصيب لهم في الآخرة، ولا يكلِّمهم الله بما يَسُرُّهم، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة، ولا يُطَهِّرهم من الذنوب، ولهم عذاب موجع.

٧٨ ـ يُحَذِّر الله من تحريف المُضلِّين من اليهود؛ إذ ينطقون بكلام ليس من التوراة؛ ليوهموا غيرهم، فيدَّعوا أنَّ هذا من كلام الله، وليس هو من عند الله، ويفترون على الله الكذب، وهم متيقِّنون أنَّهم مفترون.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ التحذير من بعض أهل الكتاب الذين يَوَدُّون صرف المسلمين عن دينهم.

٢ ـ التحذير من خداع الذين يدخلون الإسلام من أجل التشكيك.

٣ ـ كلمة ﴿أَحَدٌ﴾ اسم نكرة غلب استعمالها في سياق النفي، ومعناها شخص أو إنسان، وهو معدود من الأسماء التي لا تقع إلا في حيز النفي، فيفيد العموم.

٤ ـ في الآية (٧٤) إخبار مستقبلي عن تخصيص الله تعالى برحمته لِـمَنْ يشاء، وفيه بشرى للمؤمنين.

٥ ـ ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب، وهو مختص بإبطال النفي، فهو هنا لإبطال قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥].

٦ ـ قال ابن عاشور في الآية (٧٧): «مناسبة هذه الآية لما قبلها أنَّ في خيانة الأمانة إبطالاً للعهد، وللحِلْفِ الذي بينهم وبين المسلمين وقريش». (التحرير والتنوير: ٣/ ١٣٥).

٧ ـ وجوب أداء الأمانة على مَنْ اؤتمن عليها.

٨ ـ بيان ما كان يفعله بعض اليهود من التحريف والتبديل في التوراة.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا
يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ
ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا
مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ
فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾
أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ
وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ
وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾

٧٩ ـ ٨٠ ـ سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسنديهما الحسن، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال أبو رافع القرظي: حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك، كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعونا؟ أو كما قال، فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غيره ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني أو كما قال»، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ الآية إلى قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. (التفسير الصحيح ٢/ ٤٣).

التفسير:

يَرُدُّ الله على أحبار اليهود والنصارى الذين دعاهم رسول الله ﷺ، فقالوا له بمكر وتكبُّر: أتريد أن نعبدك؟ فأجابهم الله: أنَّه لا يصحُّ لبشر يُنزل اللهُ عليه الكتابَ والملك والنبوَّة أن يأمر الناس أن يعبدوه! ولكن يأمرهم بأن يكونوا حكماء علماء عاملين بما أنزل عليهم، وبما كانوا يدرسونه،

ولا يأمركم بأن تجعلوا الملائكة والأنبياء آلهة من دون الله، وهل يعقل أن يأمركم بالجحود بالله بعد خضوعكم وانقيادكم لله تعالى؟! قال ابن عاشور: «قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ نَفْيٌ لاستحقاق أحد لذلك القول، واللام فيه للاستحقاق». (التحرير والتنوير: ٣/ ١٣٩).

٨١ ـ يُذَكِّر الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ حين أخذ الله العهد المؤكَّد من أنبياء أهل الكتاب: قسماً لئن أعطيتكم من كتاب وحكمة، ثمَّ جاءكم رسول موافق لما معكم، وجب عليكم أن تُصَدِّقوه وتُعِينُوه حقّاً. فهل وافقتم، واعترفتم بذلك، وأخذتم على ذلك عهدي؟ فأجاب الأنبياء: أقررنا ووافقنا. ثمَّ أمرهم الله أن يشهد بعضهم على بعض، وأنَّه شاهد على إقرارهم وشهادتهم.

٨٢ ـ فمَنْ أعرض عن الإيمان بعد هذا العهد، فأولئك البعداء عن رحمة الله تعالى، وهم الخارجون عن طاعة ربِّهم.

٨٣ ـ يُنْكِرُ الله تعالى على الفاسقين: أيبتغي هؤلاء ديناً غير الإسلام، وقد خضع له كلُّ مَنْ في السموات السبع والأرض طوعاً كالمؤمنين، وكرهاً كالكفَّار؟ وإلى الله يرجع الجميع يوم الحساب.

٨٤ ـ يؤكِّد الله تعالى أهمية الإيمان، فيأمر النبيَّ ﷺ وأُمته أن يعلنوا عن إيمانهم الكامل الشامل، وهو التصديق بالله العظيم وبالقرآن الكريم، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام والأسباط، وهم القبائل من ذريَّة أولاد يعقوب عليه السلام، وما أعطى الله موسى وعيسى عليهما السلام من التوراة والإنجيل، وما أُوتي النبيون من ربِّهم، لا نُفَرِّق بين أحد من هؤلاء، ونحن لله تعالى وحده منقادون بالطاعة.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ تنزيه الأنبياء صلى الله عليهم وسلم أن يدعوا الناس إلى عبادتهم؛ لأن ذلك شرك محض.

٢ ـ تحريم كل عبادة لغير الله تعالى.

٣ ـ الإنكار الشديد على مَنْ يُعرض عن دين الإسلام، ويبتغي غيره.

٤ ـ وجوب الإيمان بكل ما جاء به رسل الله تعالى، ووجوب الإيمان بالكتب التي أنزلت عليهم.

٥ ـ ينظر: شجرة الأنبياء في الملحق.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى
ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ
ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

التفسير:

٨٥ ـ أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسندَيهما الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، فأنزل الله عز وجل بعد: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾. (التفسير الصحيح ٢/ ٤٦).

ومَنْ سلك طريقاً غير ما شرعه الله سبحانه من الدين فلن يتقبَّلَ الله منه، ويشمل ذلك الأوَّلين والآخرين، ويوم القيامة سيُعاقَب، وهو من الخاسرين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فبيَّن أنَّ الدِّين الذي رضيه ويقبله من عباده الإسلام، ولا يكون الدِّين في محلِّ الرضا والقبول إلا بانضمام التصديق إلى العمل». (مجموع الفتاوى ٧/ ٣٦٠).

٨٦ ـ سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد، ولحق بالشرك، ثم تندم، فأرسل إلى قومه: سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟ فجاء قومه إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن فلاناً قد ندم، وإنَّه أمرنا أن نسألك هل له من توبة؟ فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ إلى قوله:

﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فأرسل إليه فأسلم». (أخرجه النسائي في السنن ٧/ ١٠٧ كتاب تحريم الدم، باب توبة المرتد، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (الإحسان ١٠/ ٣٢٩ برقم ٤٤٧٧) قال محققه: إسناده صحيح. وأخرجه الحاكم في (المستدرك ٢/ ١٤٢) قال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي).

التفسير:

كيف يرشد الله إلى الصواب، ويُوَفِّق للإيمان قوماً ارتدوا، فجحدوا نبوَّة محمَّد ﷺ بعد تصديقهم إياه وإقرارهم أنَّه رسول الله حقّاً، وأنَّ البراهين التي جاء بها تدلُّ على صحَّة نبوَّته؟ والله لا يوفِّق للحقِّ القوم المعتدين.

٨٧ ـ ٨٩ ـ أولئك البعيدون عن الحقِّ الذين ارتدُّوا جزاؤهم الطرد من رحمة الله، وتلعنهم الملائكة والناس جميعاً، ماكثين في النار دائماً لا يُرفع عنهم العذاب ولا هم يُمْهَلُون، إلا الذين رجعوا عن الردَّة بالتوبة النصوح، وأصلحوا العمل، فإنَّ الله يتقبَّل منهم، فهو غفور للذنوب، رحيم بعباده.

٩٠ ـ ٩١ ـ يتوعَّد الله تعالى الذين ارتدُّوا، ثمَّ ازدادوا كفراً بمعاداة المؤمنين، بأنَّ الله لن يقبل توبتهم؛ لأنَّهم ضلُّوا وأصرُّوا على الضلال. وكذلك الذين جحدوا نبوَّة محمَّد ﷺ، وماتوا على ذلك، فلن يقبل الله من أحدهم يوم القيامة لو فدى نفسه بملء الأرض ذهباً من العذاب، وعقابهم عذاب موجع، وما لهم من أعوان يخلِّصونهم منه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فأخبر سبحانه أنَّ من ازداد كفراً بعد إيمانه لن تُقبل توبته، وفَرَّق بين الكفر المزيد كفراً، والكفر المجرَّد، في قبول التوبة من الثاني دون الأوَّل، فمن زعم أنَّ كلَّ كفر بعد الإيمان تُقبل منه التوبة فقد خالف نصَّ القرآن». (الصارم المسلول ٣٧٤).

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ في الآية (٨٥) إخبار مستقبلي عن عدم قبول الله تعالى لِـمَنْ يريد غير دين الإسلام.

٢ ـ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الدِّين عند الله الإسلام في كلِّ زمان ومكان». (الجواب الصحيح ٢/ ١١٧).

٣ ـ الإسلام هو دين الحق.

٤ ـ التحذير من الإعراض عن الدِّين.

٥ ـ في الآية (٩٠) إخبار عن أمر مستقبلي في أن الله تعالى لا يقبل توبة الكفَّار، إذا ازدادوا كفراً بعد إيمانهم.

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

التفسير:

٩٢ ـ لن تنالوا ـ أيُّها المؤمنون ـ ثواب البرِّ، وهو الجنَّة؛ حتى تَتَصَدَّقوا ممَّا تحبون. وما تنفقوا من قليل أو كثير فإنَّ الله عليم به، وسيثيبكم عليه.

٩٣ ـ جميع الأطعمة كانت حلالاً لذريَّة يعقوب عليه السلام، إلا ما حَرَّم يعقوب على نفسه، كلحوم الإبل وألبانها، فقد نذر ذلك حين أُصِيبَ بمرض، من قبل أن تنزل التوراة على موسى، ثمَّ حَرَّم ذلك ذريَّةُ يعقوب اتِّباعاً لأبيهم، فأمر الله تعالى محمَّداً صلى الله عليه وسلم أن يردَّ عليهم: بأن يأتُوا بالتوراة، فيقرؤوها إن كانوا صادقين في ادِّعائهم تحريم لحوم الإبل وألبانها.

٩٤ ـ فمَن اختلق منهم الكذب على الله من بعد بيان الحقِّ في التوراة، فأولئك البعداء عن رحمة الله، هم المعتدُون بقولهم الباطل.

٩٥ ـ قل يا محمَّد لهؤلاء الكاذبين: صدق الله فيما أخبر به، فاتَّبِعُوا دين الإسلام والاستقامة عليه، وما كان إبراهيم عليه السلام من الذين يعبدون الأوثان.

٩٦ ـ ٩٧ ـ يخبر الله تعالى بعظمة بيته الحرام، فهو أوَّل البيوت التي

بُنيت لعبادة الله في الأرض الذي يقع في (مكَّة)، وفيه البركة والهداية للناس أجمعين، وفيه علامات واضحة منها: مقام إبراهيم ـ وهو الحِجْرُ الذي كان يقف عليه في أثناء بناء الكعبة ـ وفيه الأمن، فمَنْ دخله كان آمناً على نفسه. وقد أوجب الله على مَنْ يستطيع حجَّ هذا البيت، ومَنْ أنكر فريضة الحجِّ فإنَّ الله غني عنه وعن الناس أجمعين.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله أي مسجد وُضِعَ أولَ؟ قال: «**المسجد الحرام**». قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «**ثم المسجد الأقصى**» قلتُ: كم كان بينهما؟ قال: «**أربعون**». ثم قال: «**حيثُما أدركتكَ الصلاة فصلِّ، والأرض لك مسجد**». (الصحيح ٦/٤٥٨ برقم ٣٤٢٥ ـ كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾).

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ الترغيب في الإنفاق في سبيل الله، وأن ينفق الشيء الجيِّد غير الرديء.

٢ ـ الردُّ على مزاعم اليهود، وأمرهم باتِّباع دين إبراهيم عليه السلام، وهو الإسلام.

٣ ـ وجوب الأمن لِـمَنْ دخل البيت الحرام ولكن هذا لا يمنع أَخْذُ الجاني بجنايته.

٤ ـ الحج ركن من أركان الإسلام، وهو مرة واحدة في العمر.

٥ ـ قال ابن عاشور في الآية (٩٧): «في هذه الآية من صيغ الوجوب صيغتان: لام الاستحقاق، وحرف ﴿عَلَى﴾ الدال على تقرر حق في ذمة المجرور بها». (التحرير والتنوير: ٣/١٦٧).

٦ ـ من الآيات البينات في الحرم المكي:

أ ـ ضبط اتجاه أضلاع الكعبة المشرفة: فالكعبة المشرفة مبنية بأضلاعها الأربعة في الاتجاهات الأربعة الأصلية تماماً، وتحديد تلك الاتجاهات بهذه الدقة ينفي إمكانية كونه عملاً بشرياً.

ب ـ الحجر الأسود من أحجار السماء؛ لأنها تشبه أحجار النيازك، وإن تميزت بتركيب كيميائي ومعدني خاص.

ج ـ مقام إبراهيم عليه السلام يحمل طبعة قدميه.

د ـ بئر زمزم آية من آيات الحرم المكي، لتدفق الماء منه على مدى أكثر من ثلاث آلاف سنة، من قلب صخور نارية ومتحولة شديدة التبلور. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٥٨٧ ـ ٥٩٤). وينظر: صورة مقام إبراهيم، كما في الملحق.

٧ ـ ثبت علمياً حمايةُ مكة المكرمة من الهزات الأرضية والثورات البركانية، على الرغم من وجود أكثر من تسعين ألف كيلو متر مربع من الطفوح البركانية وآلاف الفوهات البركانية على طول أرض الحجاز، وعلى الرغم من هذه الخصوصية لا (ولم) تمنع تعرض تلك الأرض المباركة لبعض الهزات الأرضية الخفيفة، ولعدد من التغيرات المناخية التي تسبب هطول الأمطار الموسمية بغزارة على ندرة حدوث ذلك. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٥٩٥ ـ ٦٠٢).

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

التفسير:

٩٨ ـ ٩٩ ـ يُنْكِرُ اللهُ على اليهود والنصارى، فيأمر محمَّداً ﷺ أن يقول لهم: لِمَ تجحدون بآيات الله الدالَّةِ على صدق رسالة محمَّد ﷺ، والله شهيد

على أفعالكم؟ وكذلك يُنكر عليهم: لِمَ تمنعون المؤمنين عن دين الله ونبيِّه بالشبهات والفتن والتحريف، وأنتم تعلمون أنَّهم على الحقِّ؟ وليس الله بغافل عن صنيعكم.

١٠٠ ـ يحذِّر الله المؤمنين من طاعة طائفة من مكرة اليهود والنصارى، فإنَّهم حريصون على إضلالكم، وانتكاسكم في الكفر بعد الإيمان.

١٠١ ـ سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم والطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت بين الأوس والخزرج حرب في الجاهلية، فبينما هم يوماً جلوس إذ ذكروا ما بينهم حتى غضبوا، فقام بعضهم إلى بعض بالسلاح فنزلت: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. (ينظر: التفسير الصحيح ٢/ ٥٧).

التفسير:

ثمَّ حَثَّهم على الثبات على الإيمان واستبعاد الكفر: كيف تجحدون بالله وآيات القرآن تقرأ عليكم، وفيكم سنَّة رسول الله ﷺ؟ ومَنْ يتمسَّك بالإسلام فقد وُفِّق إلى الطريق الصحيح.

١٠٢ ـ يا أيُّها الذين صدَّقوا الله ورسوله، خافوا الله الخوف الواجب، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وداوموا على الالتزام بالإسلام إلى آخر حياتكم.

١٠٣ ـ وتمسَّكوا جميعاً بالقرآن العظيم، واحذروا من التفرُّق والاختلاف المذموم، واشكروا الله على نعمته عليكم بالائتلاف بينكم، وجمع الكلمة بعد أن كنتم متعادِين في الجاهلية، فغَدَوْتُم بفضل الله عليكم مصاحبين نعمته، متآخين متحابِّين، وكنتم أوشكتم الوقوع في نار جهنَّم، فأنقذكم منها بالإسلام. وبمثل ذلك البيان الواضح يُفَصِّل الله لكم آياته الدالَّة على الخير؛ كي تهتدوا إلى طريق الرشاد والتوفيق.

عن نافع قال: جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع حين كان من أمر الحَرَّة ما كان، زمن يزيد بن معاوية. فقال: اطرحوا لأبي عبد الرحمن

وسِادةً فقال: إني لم آتك لأجلس، أتيتك لأُحدثك حديثاً سمعت رسول الله ﷺ يقوله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ خلع يداً من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومَنْ مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية**».

(أخرجه مسلم الصحيح ٣/ ١٤٧٨ برقم ١٨٥١ ـ كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن).

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ إنكار الله تعالى على أهل الكتاب جحودهم برسالة رسول الله محمد ﷺ.

٢ ـ تحذير المؤمنين من طاعة أعدائهم لأنهم يسعون إلى إعادتهم إلى الضلال.

٣ ـ في الآية (١٠٠) إخبار عن أمر مستقبلي في خطر طاعة أهل الكتاب؛ الذين يسعون إلى رِدَّة المؤمنين إلى الكفر.

٤ ـ قال ابن عاشور في الآية (١٠١): «في الآية دلالة على عِظَمِ قَدْرِ الصحابة، وأن لهم وازعين عن مواقعة الضلال: سماع القرآن، ومشاهدة أنوار الرسول ﷺ فإنَّ وجوده عصمة من ضلالهم». (التحرير والتنوير: ٣/ ١٧٢).

٥ ـ إنكار الله تعالى على الذين يسمعون كلام أعدائهم ويصدقونهم.

٦ ـ وجوب الاعتصام بكتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد ﷺ.

٧ ـ وجوب الوحدة بين الأُمة، والنهي عن الاختلاف في العقيدة والأصول، أمَّا الاختلافُ الفقهي المبني على الفروع فلا بأس به.

٨ ـ مَنْ أخذ بالقرآن والسنَّة فقد نال الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الإسلام.

٩ ـ رحمة الله تعالى بالخَلْقِ، إذ بعث لهم رسول الله محمَّداً ﷺ.

١٠ ـ في الآية (١٠١) بَيَّنَ الله تعالى لعباده وسائل التربية على تحقيق كلمة التوحيد عن طريق: معرفته تعالى بالكتاب والسنة بفهم سلف الأُمة.

١١ ـ في الآية (١٠٣) بَيَّنَ الله تعالى أن الوسائل التربوية لتحقيق الأخوة تتم بأمرين هما: شكر الله على هذه النعمة ومعرفة قدرها، حيث ذكر نعمة الأخوة في الآية لبيان مكانتها عند الله تعالى. والتعاون على الطاعة والإصلاح والدعوة.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ
إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ
تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ
وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ
مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟
يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

التفسير:

١٠٤ ـ يؤكِّد الله تعالى وجوب إيجاد جماعة من المؤمنين يدعون إلى الإسلام، ويأمرون بطاعة ربِّهم وينهون عن معصيته، وأولئك أصحاب المنزلة العالية القائمون بهذه الأعمال هم الفائزون بالجنَّة.

١٠٥ ـ نهى الله المؤمنين عن التفرقة والعداوة، كما تفرَّق اليهود والنصارى من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحة، وأولئك البعداء عن رحمة الله تعالى لهم عذاب شديد مؤلم.

١٠٦ ـ ١٠٧ ـ يتفاوت الخلق يوم القيامة، إذ تَبْيَضُّ وجوه المؤمنين حسناً بطاعتهم، وتَسْوَدُّ وجوه الكافرين سوءاً بمعاصيهم، فأمَّا الذين اسودَّت وجوههم فيُوَبَّخون: أكذَّبتم بعد ما عرفتم الحقَّ بالبراهين الواضحة؟ فذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم، وأمَّا الذين ابيضَّت وجوههم ففي جنَّة الله ماكثين فيها أبداً.

١٠٨ ـ تلك الآيات العالية القدر والحجج العظيمة نَقُصُّها عليك يا محمَّد بالصدق. ولا يريد الله ظلم أيِّ أحدٍ من المخلوقين.

١٠٩ ـ ولله وحده ملك السموات السبع والأرَضين السبع، وإليه مصير المخلوقين؛ ليجازيهم.

١١٠ ـ هذا تفضيل من الله لهذه الأُمَّة بما تميَّزت به، فإنَّهم خير الناس يأمرون الناس بما أمر به الله ورسوله ﷺ، وينهون عمَّا نهى عنه الله ورسوله ﷺ، ويُصدِّقون بالله، ولو صدَّق اليهود والنصارى رسالة النبيِّ ﷺ لكان إيمانهم أنفع لهم عند ربِّهم، بعضهم يصدِّقون بذلك، وأكثرهم خارجون عن طاعة الله.

١١١ ـ هؤلاء الفسقة من أهل الكتاب لن يستطيعوا أن يَضُرُّوكم إلا بألفاظ سيئة، وإن يقاتلوكم يُهزموا مُوَلِّين الأدبار هرباً، ثمَّ هم مخذولون فلا ناصر لهم.

١١٢ ـ وهؤلاء الكفرة من أهل الكتاب أُلزموا الذلَّة والهوان أينما وجدوا، إلا بعهد من الله وعهد من الناس، يأمنون على أنفسهم وأموالهم، ورجعوا مستحقين لغضب الله، فلَزِمَتْهم المذلَّة والاستكانة بسبب تكذيبهم بآيات الله واستمرارهم على قَتْلِ الأنبياء ظُلماً. ذلك العقاب بسبب معاصيهم وتجاوزهم أوامر الله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عند الآية (١١٢): «بيَّن سبحانه أنَّهم أينما ثقفوا فعليهم الذلَّة إلا مع العهد، فعُلِمَ أنَّ مَنْ له عهد وحبل لا ذلَّة عليه، وإن كانت عليه المسكنة، فإنَّ المسكنة قد تكون مع عدم الذلّة». (الصارم المسلول ٢٧).

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تَدْعُونه فلا يستجاب لكم**». (أخرجه الترمذي في السنن ٤/٤٦٨ برقم ٢١٦٩ ـ كتاب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحسنه الألباني وانظر (صحيح سنن الترمذي برقم ١٧٦٢).

٢ ـ تحريم الاختلاف والفرقة والتشرذم.

٣ ـ قال ابن عاشور: «حَذَفَ مفاعيل: يدعون ويأمرون وينهون؛ لقصد التعميم أي: يَدْعون كل أحد كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥]». (التحرير والتنوير: ٣/ ١٨١).

٤ ـ تتصدَّر الأُمَّةُ الخيريَّةَ على الأُمم إذا قامت بحقِّ الدعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥ ـ العقوبة تحلُّ بالأُمم إذا خالفوا أوامر الله تعالى، كما حصل لليهود.

٦ ـ جرائم اليهود قديمة ومتكرِّرة.

٧ ـ بشرى الله تعالى للمؤمنين أنَّ اليهود لن ينتصروا في قتالهم معهم، بل ستكون الهزيمة عاقبتهم.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي
الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ
وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ
رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا
عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَاأَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ۖ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا
وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾
إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا
يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

التفسير:

١١٣ ـ ١١٤ ـ سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسندَيهما الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، ومَنْ أسلم من اليهود معهم، فآمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام، ورسخوا فيه، قالت أحبار اليهود وأهل الكفار منهم: ما آمن بمحمد ولا اتبعه إلا أشرارنا! ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. (التفسير الصحيح ٢/ ٦٧).

التفسير:

ليس أهل الكتاب متساوين في الصفات: منهم طائفة مطيعة لله عادلة يُرَتِّلون القرآن في صلاة التهجُّد، ذاكرين الله مُتَذَلِّلين له، يُصَدِّقون بالله تعالى وبالبعث يوم القيامة، ويأمرون بما أمر الله من الخير، وينهون عمَّا نهى الله عنه من الشر، ويُسابقون إلى فعل الخيرات. وأولئك أصحاب الدرجات العالية الذين اتصفوا بهذه الصفات من عباد الله الصالحين.

١١٥ ـ وما يُقَدِّموا من أعمال الخير فلن يضيع ثوابه عند الله سبحانه. والله ذو علم بمَنِ اتَّقاه بطاعته واجتناب معصيته.

١١٦ ـ إنَّ الذين كذَّبوا بالله ورسوله لن تنفعهم أموالهم وذريَّاتهم شيئاً في التخلُّص من عذاب الله. وأولئك البعداء عن رحمة الله ملازمون للنار، ماكثون فيها أبداً.

١١٧ ـ شَبَّه ما يتصدَّق به المكذِّبون بالله ورسوله في وجوه الخير في الدنيا، بريح فيها برد شديد أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم بالكفر فدمَّرَتْه، وما ظلمهم الله بضياع ثواب أعمالهم، ولكنَّهم ظلموا أنفسهم بالكفر.

١١٨ ـ يُنادي الله تعالى المؤمنين ويُحَذِّرهم: لا تتخذوا غير المؤمنين أصدقاء وأصفياء تطلعونهم على أسراركم، فهؤلاء لا يُقَصِّرون في إفساد أموركم، إذ هم يحرصون على إرهاقكم والضرر بكم، وقد ظهرت علامات الكراهية من ألسنتهم، وما تضمره قلوبهم أعظم، قد وَضَّحْنا لكم الحجج، إن كنتم تعقلون أمر الله وموعظته.

١١٩ ـ ينبِّه الله تعالى المؤمنين الذين وقعوا في موالاة المنافقين الذين يُظهرون الإيمان، فيحبُّهم المؤمنون وهم لا يحبُّون المؤمنين! وأنتم ـ أيُّها المؤمنون ـ تؤمنون بكلِّ ما أنزل الله من كتب، ولكنّهم لا يؤمنون بكتابكم، وإذا قابلوكم أعلنوا الإيمان بأفواههم، وإذا انفردوا فيما بينهم تحسَّروا وعَضُّوا أطراف أصابعهم من الحقد والغضب؛ لما يرون من قوَّة المسلمين، ثمَّ أمر الله تعالى نبيه أن يدعو عليهم بالهلاك كَمَداً وأسفاً. إنَّ الله ذو علم بما تُضْمِرُ الصدور.

١٢٠ ـ ومن بلايا هؤلاء ـ أيُّها المؤمنون ـ : أنهم إن أكرمكم الله بفضلٍ وخير يحزنوا، وإن تقع بكم نازلة أو مكروه يفرحوا بذلك، وإن تصبروا على أذاهم وعلى المصائب، وتخافوا الله في طاعته لا تضرّكم عداوتهم شيئاً. إنَّ الله أحاط علماً بما يفسدون، وسيعاقبون على ذلك.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ الثناء على المؤمنين من أهل الكتاب، وبيان فضلهم وثوابهم.

٢ ـ مهما أنفق الكفَّار في الدنيا فإنَّها لن تنفعهم في الآخرة.

٣ ـ مَنْ أشرك بالله تعالى، أو مات كافراً فلن ينفعه عمله الصالح.

٤ ـ تنزيه الله تعالى عن الظلم، وأنَّ أهل الكفر هم الذين يظلمون أنفسهم.

٥ ـ في الآيتين (١١٥ ـ ١١٦) إخبار عن أمر مستقبلي في ثواب الله تعالى المؤمنين من أهل الكتاب على كلِّ فعل خير، وأنَّ أموال المشركين وأولادهم لا تُغْنيهم شيء من الله تعالى.

٦ ـ تحذير المؤمنين من موالاة الذين تبدو منهم العداوة للمسلمين.

٧ ـ عدم جواز شهادة العدو على عدوه.

٨ ـ بيان صفات أعداء المسلمين، فهم لا يريدون لهم الخير.

٩ ـ حقد أهل الباطل على جماعة المسلمين.

١٠ ـ في الآية (١٢٠) إخبار عن أمر مستقبلي في استياء المشركين إذا مَسَّ المؤمنين حسنة، وعن فرح المشركين إذا أصاب المؤمنين سيئة، وعن عدم قدرة المشركين الإضرار بالمؤمنين فيما إذا صبروا، واتقوا الله.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت
طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ
بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ
رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا
يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ
وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

التفسير:

١٢١ ـ واذكر ـ أيُّها الرسول ـ غزوة أُحد، حين خَرَجْتَ من بيتك صباحاً تُرَتِّب صفوف القتال ومواقعه للصحابة المشاركين في هذه الغزوة. والله سميع للأقوال، عليم بالأفعال.

١٢٢ ـ سبب النزول:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: «فينا نزلت ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ قال: نحن الطائفتان: بنو حارثة، وبنو سلمة، وما نحب ـ وقال سفيان مرة: وما يَسُرُّني ـ أنها لم تنزل، لقول الله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾. (صحيح البخاري ٨/ ٧٣ برقم ٤٥٥٨ ـ كتاب التفسير، سورة آل عمران. وصحيح مسلم ٤/ ١٩٤٩ ـ كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأنصار رضي الله عنهم).

التفسير:

واذكر أيضاً ـ أيها الرسول ـ حين وسوس الشيطان في بني سلمة وبني حارثة، إذ جاءتهم فكرة الرجوع عن القتال يوم أُحد، ولكنَّ الله دفع عنهما هذه الوسوسة وحفظهم منها. وعلى الله وحده فليتوكَّل المؤمنون، وبه يستعينون.

١٢٣ ـ قسماً لقد نصركم الله ـ أيُّها المؤمنون ـ على المشركين يوم بدر

ـ بلدة تبعد عن المدينة (١٦٠) كيلاً جنوباً ـ وأنتم قلَّة (ثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً) فاتقوا الله تعالى بطاعته؛ كي تبلغوا مقام الشاكرين لنعمه.

١٢٤ ـ واذكر ـ أيُّها الرسول ـ حين تُطَمْئِنُ هذه القلَّة وتبشِّرهم بالمدد من الله: ألا يكفيكم أن يعينكم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مُنْزَلِين من السماء؟

١٢٥ ـ نعم يكفيكم ذلك، وبشرى ثانية لكم: إن تثبتوا تجاه العدو، وتخافوا الله بطاعته، ويأتيكم كفَّار مكَّة فجأة من ساعتهم هذه، فإنَّ خالقكم يعينكم بخمسة آلاف من الملائكة، مُعَلَّمين بعلامات يعرفونهم بها.

١٢٦ ـ ١٢٧ ـ وما جعل الله هذا العون إلا بشارة لكم، ولتسكن قلوبكم من الاضطراب. وما هذا النصر إلا من عند الله وحده، العزيز في ملكه، الحكيم في تدبيره. ودَبَّر هذا التدبير ليهلك طائفة من الكفَّار، أو يغيظهم ويخزيهم فيرجعوا مهزومين.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ مُهِمَّة القائد تنظيم صفوف الجند، ووَضْع الخطَّة المحكمة في القتال.

٢ ـ التحذير من الخلاف والفرقة، ولاسيما في ميدان المعركة.

٣ ـ وجوب التوكل على الله في كل أمر يهم به المسلم، فهو من أسباب النصر.

٤ ـ وجوب شكره سبحانه على ما أنعم.

٥ ـ بيان منزلة الصبر وفضله في القتال.

٦ ـ حقيقة اشتراك الملائكة في المعركة.

٧ ـ ينظر: خريطة غزوة بدر، كما في الملحق.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟
ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓا۟
إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ
يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟
لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ
أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

١٢٨ ـ سبب النزول:

عن أنس رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ كُسِرت رباعيته يوم أُحد، وشُجَّ في رأسه، فجعل يَسْلُت الدم عنه، ويقول: «**كيف يُفلح قوم شَجُّوا نبيهم، وكَسَروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله؟**» فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾. (الصحيح ٣/ ١٤١٧ برقم ١٧٩١ ـ كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أُحد).

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعوَ لأحد قَنَتَ بعد الركوع، فربَّما قال إذا قال: سمع الله لِمَنْ حمده اللهم ربنا لك الحمد: «**اللهم انْجِ الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، اللهم اشْدُدْ وَطأتك على مُضَرَ، واجعلها سنين كسني يوسف**» يجهر بذلك. وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: «**اللهمَّ العَنْ فلاناً وفلاناً**» ـ لأحياء من العرب ـ حتى أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ الآية. (صحيح البخاري ٨/ ٧٤ برقم ٤٥٦٠ ـ كتاب التفسير، سورة آل عمران. وصحيح مسلم ١/ ٤٦٦ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة ونحوه).

التفسير:

ليس لك ـ أيُّها الرسول ـ من أمر الخلق إلا أن تُنَفِّذ فيهم أمري، إنَّما أمرهم كلُّه إلى الله، فإمَّا أن يقبل توبة مَنْ تابوا، أو يعاقبهم على كفرهم، فإنَّهم معتدون.

١٢٩ ـ ولله وحده ملك جميع ما في السموات السبع وما في الأرَضين السبع، يتصرَّف في ملكه، فيغفر لِـمَنْ يشاء من عباده برحمته، ويعذِّب مَنْ يشاء بعدله. والله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم.

وينظر: تفسير آخر سورة البقرة الآية (٢٨٤).

١٣٠ ـ ١٣١ ـ ينهى الله المؤمنين عن التعامل بالربا في القرض، بأخذ زيادة على رؤوس الأموال، مهما قَلَّت أو كَثُرت، فإنَّها تتراكم كلَّما مرَّت السنون، وخافوا الله في أحكامه؛ كي تفوزوا بالجنَّة. ثمَّ يؤكِّد الله ذلك بالتخويف من نار جهنم التي هَيَّأها عقوبة للكافرين. وينظر: سورة البقرة الآية (٢٤).

١٣٢ ـ وأطيعوا الله تعالى والرسول ﷺ في كلِّ أمر ونهي؛ كي تنالوا رحمة الله تعالى. وينظر: سورة آل عمران الآية (٣٢).

١٣٣ ـ وسابقوا ـ أيُّها المؤمنون ـ بالأعمال الصالحة؛ لتنالوا من ربِّكم مغفرة لذنوبكم، وتدخلوا جنَّة واسعة عرضها كعرض السموات والأرض، هَيَّأها الله للذين يخافونه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

١٣٤ ـ ١٣٥ ـ صفة هؤلاء المتقين أنَّهم يبذلون أموالهم في اليسر والعسر، ويكتمون غضبهم بالصبر، ويتجاوزون عَمَّنْ أساء لهم. والله يحبُّ الذين يُحسنون في تعاملهم، ويطلبون المغفرة من الله إذا ارتكبوا كبيرة أو صغيرة، وهم موقنون أنَّه لا يغفر الذنوب إلا هو، فلا يقيمون على ما اقترفوا من المعاصي، فهم يعلمون بقبح المعاصي، وإن تابوا منها تاب الله عليهم.

١٣٦ ـ هؤلاء أصحاب الدرجات العالية الذين اجتمعت فيهم هذه الصفات لهم منزلة رفيعة عند ربِّهم من المغفرة للذنوب وجنات تجري من تحت أشجارها المياه العذبة ماكثين فيها أبداً، ونِعْمَتِ الجنَّة ثواباً للعاملين بأحكام الله. وينظر: سورة البقرة الآية (٢٥).

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ قال ابن عاشور: «مناسبة ذكر هذه الوقعة عقب ما تَقَدَّم أنها من أوضح مظاهر كيد المخالفين في الدين، والمنافقين، ولمَّا كان شأن المنافقين من اليهود وأهل يثرب واحداً، ودخيلتهما سواء، وكانوا يعملون على ما تُدَبِّره اليهود، جمع الله مكايد الفريقين بذكر غزوة أُحد». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٠٤).

٢ ـ تحريم الربا بكلِّ أنواعه.

٣ ـ بشرى الله تعالى عباده بالمغفرة لِـمَنْ يسارع في التوبة.

٤ ـ التحذير من الإصرار على المعصية، وبيان فضل عدم الإصرار عليها.

٥ ـ عظمة حجم الجنَّة.

٦ ـ فضل العفو عن الخطأ، وكظم الغيظ.

٧ ـ وجوب الاستغفار من الأخطاء والمحرمات التي يقع فيها العباد.

٨ ـ في الآية (١٣٣) يربي الله تعالى عباده على طلب رضاه سبحانه وإرادة الآخرة بالتماس الطاعات والمسابقة إليها.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾
هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ
نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ
﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا
يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن
تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِى۟ن
مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى
ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ
ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

التفسير:

١٣٧ ـ قد مضت من قبلكم ـ أيُّها المؤمنون ـ طرائق الله تعالى في عقاب الأُمم الظالمة بالهلاك، فامشوا في الأرض؛ لتعتبروا، فانظروا مصير المكذِّبين لله ورسله.

١٣٨ ـ هذا القرآن العظيم فيه بيان شافٍ للناس عامَّة، وإرشاد وعبرة للمتقين خاصَّةً.

١٣٩ ـ يُعَزِّي الله تعالى الصحابة رضي الله عنهم على ما أصابهم من الجراح والقتل يوم أُحد: لا تضعفوا عن جهاد عدوِّكم، ولا تَهِنُوا وَهْناً بالشكِّ في وعد الله بنصر دينه حتى ولو غُلِبْتم، ولا تأسَوا لما أصابكم، فإنَّكم أنتم الظاهرون عليهم إن كنتم مصدِّقي رسول الله ﷺ فيما يَعِدُكم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فهم الأعلَون إذا كانوا مؤمنين ولو غلبوا، وقال كعب بن زهير في صفة الصحابة:

ليسوا مفاريحَ إن نالَتْ رماحُهم يوماً وليسوا مجازيعاً إذا نِيلوا».

(جامع الرسائل ٢/ ٣٦١).

١٤٠ ـ إنْ أصابكم جراح أو قَتْلُ سبعين من المسلمين يوم أُحد، فقد أصاب الكافرين جراح وقتل مثل ذلك يوم بدر. وتلك الأيام يُصَرِّفها الله بين المسلمين والمشركين ما بين نصر وهزيمة؛ ليختبرهم، فيتميَّز المؤمن الصادق من غيره، ويصطفي منكم مَنْ ينال الشهادة في سبيل الله. والله لا يُحِبُّ المعتدين بل يعاقبهم.

١٤١ ـ وليبتلي الله تعالى المؤمنين بالمصيبة التي نزلت بهم، فيتخَلَّصوا من المنافقين، ويستأصل الكافرين وينقصهم.

١٤٢ ـ أظننتم أن تدخلوا الجنَّة ولمَّا يتبيَّنْ لعبادي المؤمنون المبتَلُون بالشدائد، والمجاهدون منكم في سبيل الله، والصابرون عند البأس؟

قال الشيخ الشنقيطي: «أنكر الله في هذه الآية على مَنْ ظن أنه يدخل الجنة دون أن يبتلى بشدائد التكاليف التي يحصل بها الفرق بين الصابر المخلص في دينه وبين غيره، وأوضح هذا المعنى في آيات متعددة كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]».

١٤٣ ـ ولقد كنتم تطلبون الشهادة في سبيل الله قبل غزوة أُحد، فها قد حصل ما كنتم تريدون، فرابطوا وقاتلوا واصبروا.

١٤٤ ـ يُنكر الله تعالى على الذين هَمُّوا بالردَّة عندما أُشيع قتل النبيِّ محمَّد ﷺ في غزوة أُحد: ليس محمَّد إلا رسولاً قد مضت قبله رسل، فمنهم مَنْ مات، ومنهم مَنْ قُتل، أفإن مات بانقضاء أجله، أو قتله الكفَّار ارتددتم عن دينكم؟ ومن يرتدَّ عن دينه فلا يضرُّ الله شيئاً، وسيثيب الله الشاكرين قولاً وعملاً وثباتاً على الدين.

١٤٥ ـ لا يمكن أن يموت أحد إلا بقضاء الله وقدره، وقد كَتَبَ لكلِّ نفس أجلها في كتاب مؤقَّت بوقت محدَّد. ومَنْ يطلب بعمله ثواب الدنيا نعطه منها وليس له في الآخرة من نصيب، ومَنْ يطلب ثواب الآخرة أعطيناه أجره كاملاً، مع ما قسمناه له في الدنيا، وسنثيب الشاكرين الذين يُعَظِّمون الله في القول والفعل. هذه الآية مقيدة بمشيئة الله تعالى وإرادته المذكورة في قوله

تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ عاقبة المكذبين للرسل الهلاك والدمار.

٢ ـ قال ابن عاشور: «قال ابن عرفة: السير في الأرض حسي ومعنوي، والمعنوي هو النظر في كتب التاريخ بحيث يحصل للناظر العلم بأحوال الأُمم، وما يقرب من العلم، وقد يحصل به من العلم ما لا يحصل بالسير في الأرض لعجز الإنسان وقصوره». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٢٧).

٣ ـ مكانة المؤمنين وعلوهم في الدنيا والآخرة.

٤ ـ ﴿أَمْ﴾ هنا منقطعة، هي بمعنى (بل) الانتقالية؛ لأن هذا الكلام انتقال من غرض إلى آخر، وهي إذا استعملت منقطعة تؤذن بأن ما بعدها استفهام، لملازمتها للاستفهام.

٥ ـ العتاب من الله لِـمَنْ خالف وصية رسول الله ﷺ.

٦ ـ عدم الحزن على ما فات.

٧ ـ قال ابن عاشور: «﴿وَلَمَّا﴾ حرف نفي أخت (لم) إلا أنها أشد نفياً من (لم)، لأنَّ (لم) لنفي قول القائل فعل فلان، و(لَمَّا) لنفي قوله قد فعل فلان، قاله سيبويه». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٣٤).

٨ ـ الآجال بيد الله تعالى، والجهاد في سبيل الله لا يقدم ولا يؤخر الأجل.

٩ ـ تأكيد البشرى للذين يشكرون الله تعالى بالقول والعمل.

١٠ ـ التمهيد لبيان أن رسول الله محمداً ﷺ مُعَرَّضٌ للموت؛ للاستعداد لهذه الفاجعة الكبرى.

١١ ـ إذا مات رسول الله محمد ﷺ فإنَّ رسالته باقية حتى تقوم الساعة.

١٢ ـ ينظر: خريطة غزوة أُحد، كما في الملحق.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢﴾

التفسير:

١٤٦ ـ وكم من الأنبياء قاتل مع كلِّ واحدٍ منهم جموع كثيرة من أتباعهم الذين عاصروهم، أو جاؤوا بعدهم، فما جَبُنوا لما نالهم من جروح وقَتْلٍ في سبيل الله، وما عَجَزوا وما ذَلُّوا لأعدائهم، إنَّما صبروا. والله يحبُّ الصابرين على عبادته، وسيثيبهم على صبرهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كون النبيِّ قاتل معه أو قُتل معه ربِّيون كثير لا يستلزم أن يكون معهم في الغزاة، بل كلُّ من اتَّبع النبيَّ وقاتل على دينه فقد قاتل معه، وكذلك كلُّ مَنْ قُتِلَ على دينه فقد قُتل معه». (جامع المسائل ٤/ ٦٠).

١٤٧ ـ هؤلاء الصابرون ما كان قولهم مع ثباتهم إلا طَلَبَ المغفرة من الله عن ذنوبهم وخطاياهم، وأن يجعل أقدامَهم راسخة في القتال، وأن ينصرهم على الذين كَذَّبوا الله ورسله.

١٤٨ ـ فاستجاب الله لهم، وأكرمهم بالنصر والتمكين في الدنيا، وبالجنَّة في الآخرة. والله يحبُّ كلَّ من أحسن في عمله وقوله.

١٤٩ ـ ١٥٠ ـ يُحَذِّر الله تعالى المؤمنين من طاعة الذين كَذَّبوا الله ورسوله؛ لأنَّهم يحرصون على إضلالكم عن الحقِّ ليردُّوكم عن دينكم، فتعودوا بخسارة الدنيا والآخرة. فهم ليسوا أنصاراً لكم حتى تطيعوهم، بل الله تعالى ناصركم، وهو وحده خير ناصر ومعين.

وينظر: الآية (٢٨) من السورة نفسها، وأما الآية (١٥٠) فبيانها في قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

١٥١ ـ ومِنْ نَصْرِه سبحانه للمؤمنين أن يقذف الرعب في قلوب الكفَّار؛ بسبب إشراكهم بالله وعبادتهم الأوثان من غير حجَّة ولا برهان، فمآلُهم نار جهنَّم، وقَبُحَ مقام المعتدين.

١٥٢ ـ قسماً لقد حَقَّق الله تعالى الوفاء بما وعدكم به ـ أيُّها المؤمنون ـ من النصر على عدوِّكم حين بدأتم تقتلونهم يوم (أُحد) بإرادة الله تعالى، حتى إذا جَبُن فريق منكم واختلفتم في أمر الله، وخالفتم رسول الله ﷺ بتَرْكِكم جبلَ الرماة من بعد ما أراكم ما تحبُّون من النصر على المشركين. وسبب النزاع أنَّ منكم مَنْ يريد الغنائم، ومنكم مَنْ يطلب الجنَّة، ثمَّ رَدَّكم عن الكفَّار منهزمين بعد أن سيطرتم عليهم ليختبركم. ولقد عفا الله عنكم حين نَدِمْتُم على فِعْلِكم. والله ذو فضل عليكم بالعفو والموعظة.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ قال ابن عاشور في الآية (١٤٦): «جاءت هذه الآية على هذا النظم البديع الصالح؛ لحَمْلِ الكلام على تثبيت المسلمين في حال الهزيمة، وفي حال الإرجاف بقتل النبي ﷺ». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٤٤).

٢ ـ ثناء الله تعالى على المجاهدين في سبيل الله الذين يصبرون، ويثبتون في ميدان المعركة.

٣ ـ فضل الصبر، وإخلاص الدعاء لله تعالى.

٤ ـ قال ابن عاشور: «قدَّم خبر (كان) على اسمها في قوله: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ لأنَّه خبر عن مبتدأ محصور؛ لأنَّ المقصود حَصْرُ أقوالهم

حينئذ في مقالة ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ فالقصر حقيقي؛ لأنَّه قصر لقولهم الصادر منهم، حين حصول ما أصابهم في سبيل الله». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٤٥).

٥ ـ وقال أيضاً: «استئناف ابتدائي للانتقال من التوبيخ واللوم والعتاب إلى التحذير؛ ليتوسَّلَ منه إلى معاودة التسلية، على ما حصل من الهزيمة». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٤٦).

٦ ـ التحذير من طاعة الكفار؛ لأنَّهم يرغبون أن يوقعوا المؤمنين في الردة.

٧ ـ بشرى الله تعالى للمؤمنين المجاهدين أنه سيلقي الرعب في قلوب أعدائهم.

٨ ـ في الآية (١٥١) إخبار عن أمر مستقبلي في إلقاء الله تعالى الرعب في قلوب المشركين بسبب إشراكهم به.

٩ ـ عفا الله تعالى عن الذين تركوا جبل الرماة.

١٠ ـ بيان أهمِّية طاعة القائد.

١١ ـ حَثُّ المؤمنين على القتال، وتحذيرهم من الفرار.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ
فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ
خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۙ
وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ
ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ
ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ
وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ
يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ
وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

التفسير:

١٥٣ ـ واذكروا حين تصعدون الجبل ولا تلتفتون إلى أحد، والرسول ﷺ يناديكم من خلفكم، ويحثُّكم على العودة إلى مواقعكم، فلم تستجيبوا، فعاقبكم الله بمصيبة القتل والجراح، ثمَّ بمصيبة الإشاعة بأنَّ محمَّداً ﷺ قد قُتِلَ؛ لأجل ألَّا تحزنوا على ما فاتكم من النصر والغنيمة، ولا على ما أصابكم من الجراح والقتل. والله وحده خبير بكلِّ أعمالكم.

١٥٤ـ ثمَّ ألقى الله عليكم ـ أيُّها المؤمنون ـ من بعد الهَمِّ أَمْناً بالنعاس الذي غشي فئة أهل الإيمان. وأمَّا فئة المنافقين فلا هَمَّ لهم سوى نجاة أنفسهم، وأساؤوا الظنَّ بربِّهم سبحانه بأنَّه لن ينصر نبيَّه حين يقولون: هل كان لنا من خيار في الخروج للقتال؟ قل لهم يا رسول الله: إن كلَّ الأمور والآجال بيد الله تعالى، وهم يُضْمِرُون في أنفسهم ما لا يظهرون لك، يقولون: لو كان

لنا أدنى اختيار ما قُتِلْنا هاهنا. قل لهم: لو كنتم في مساكنكم لخرج الذين كَتَبَ الله عليهم القتل إلى مصارعهم التي يُقْتَلون فيها؛ وليختبر الله ما في قلوبكم، فيظهر أمر المؤمن من المنافق. والله عليم بما تضمر صدور عباده.

عن أنس رضي الله عنه أن أبا طلحة قال: «غَشِيَنا النعاسُ ونحن في مصافِّنا يوم أُحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه». (الصحيح ٨/ ٧٦ برقم ٤٥٦٢ ـ كتاب التفسير ـ سورة آل عمران).

أخرج ابن أبي حاتم بسنده الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: معتِّبٌ الذي قال يوم أُحد: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلْنا هاهنا، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ﴾ إلى آخر القصة. (التفسير الصحيح ٢/ ٨٩).

١٥٥ ـ إنَّ الذين انهزموا من المسلمين يوم أُحد حين التقى جيش المسلمين بجيش الكفَّار، إنَّما أوقعهم الشيطان في خطيئة الهزيمة؛ بسبب مخالفتهم أمر النبيِّ ﷺ، ولقد تجاوز الله عنهم فلم يعاقبهم. إنَّ الله غفور للمذنبين، حليم بهم لا يعاجلهم بالعقوبة.

١٥٦ ـ يُحَذِّر الله المؤمنين أن يُقَلِّدوا المنافقين في قولهم لإخوانهم من الكفَّار إذا سافروا للتجارة أو للقتال فماتوا، فإنَّهم يقولون: لو أقاموا معنا، ولم يسافروا ما ماتوا وما قتلوا؛ ليجعل الله ذلك القول في عاقبة أمرهم ألماً وحزناً في قلوبهم. والله يُحيي مَنْ قَدَّر له الحياة، حتى ولو كان في قلب المعركة، ويُميت من انتهى أجله حتى لو كان في بروج مُشيَّدة. والله بكل ما تعملون بصير، فيجازيكم به.

قال الشيخ الشنقيطي: «ذُكر في هذه الآية الكريمة أنَّ المنافقين إذا مات بعض إخوانهم يقولون: لو أطاعونا فلم يخرجوا إلى الغزو ما قُتلوا، ولم يُبيِّن هنا: هل يقولون لهم ذلك قبل السفر إلى الغزو ليثبطوهم أو لا؟ ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، ولكنه بيَّن في آيات أُخَرَ أنهم يقولون لهم ذلك قبل الغزو ليثبطوهم، كقوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ [التوبة: ٨١] الآية، وقوله: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ١٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: ٧٢]».

١٥٧ ـ ويؤكِّد سبحانه: لئن استشهدتم في سبيل الله أو جاءكم الموت وأنتم قاصدون القتال؛ ليغفرنَّ الله لكم وليرحمنَّكم، فتفوزون بالجنَّة. وذلك خير ممَّا يجمع الناس من حطام الدنيا.

١٥٨ ـ وقسماً إن مُتُّم أو قُتِلْتُمْ في سبيل الله فلن يضيع أعمالكم، بل ستجمعون إلى الله وحده، فيجازيكم على أعمالكم.

وينظر: الآيات (١٦٩ ـ ١٧١) من السورة نفسها، وينظر: سورة البقرة الآية (١٥٤).

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ ذَمُّ الذين يظنون بالله ظنَّ السوء، وتحقيرهم.

٢ ـ قال ابن عاشور: «أحسب أن لفظ الجاهلية من مبتكرات القرآن، وصف به أهل الشرك تنفيراً من الجهل، وترغيباً في العلم، ولذلك يَذْكُرُه القرآن في مقامات الذم في نحو قوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٥٩).

٣ ـ وقال أيضاً: «مناسبة ذِكْرِ هذه الآية عقب التي قبلها أنَّه تعالى بعد أن بيَّن لهم مرتبة حق اليقين بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ انتقل بهم إلى مرتبة الأسباب الظاهرة، فبيَّن لهم أنَّه إن كان للأسباب تأثير فسبب مصيبتهم هي أفعالهم التي أملاها الشيطان عليهم وأضلَّهم». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٦٢).

٤ ـ الحذر من ورطات المنافقين وكيدهم.

٥ ـ إنَّ الله كتب الآجال وقدرها، والفرار من المعركة لن ينجي من الموت.

٦ ـ التحذير من إغواء الشيطان وتخذيله.

٧ ـ تحريم اتباع الكفار أو التمثيل بهم، في أقوالهم وأفعالهم.

٨ ـ ذَمُّ الذين يظنون أن التخَلُّف عن الجهاد يدفع عنهم الموت.

٩ ـ في الآية (١٥٧) إخبار عن أمر مستقبلي في جزاء مَنْ قُتِلَ أو مات في سبيل الله أن يغفر الله تعالى ذنوبه.

١٠ ـ في الآية (١٥٣) يبيِّن الله تعالى أن تربية المؤمنين على لزوم الاعتدال في حالة اليسر والعسر يورثهم التواضع والخضوع لله تعالى والعدل في التعامل مع الآخرين.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ
وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن
يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ
وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ
مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

التفسير:

١٥٩ ـ فبسبب رحمة من عند الله تعالى جعلها في قلبك ـ أيُّها الرسول ـ كنت رفيقاً ومسامحاً لأصحابك، ولو كنتَ جافيَ الطبع قاسيَ القلب لانصرفوا عنك، فتجاوز عمَّا نالك من أذاهم يوم أُحد، واطلب لهم من الله المغفرة، واستشرهم في الأمور المهمَّة، فإذا صَمَّمْتَ على أمر بعد الاستشارة فامضِ على ما عزمت معتمداً على الله وحده. إنَّ الله يحبُّ المتوكِّلين، فهو كافيهم في كلِّ حاجاتهم.

١٦٠ ـ إن يُؤيدكم الله تعالى ـ أيُّها المؤمنون ـ بعونه ضدَّ الأعداء فلا أحد يستطيع أن يغلبكم، وإنْ تَرَكَكم لأنفسكم من غير عونه فلن تجدوا أحداً ينصركم من بعد الله أبداً. وعلى الله يعتمد ويلجأ المؤمنون.

١٦١ ـ يُبرِّئ الله تعالى نبيَّه ﷺ من أيِّ خيانة في شأن الغنائم، فإنَّه لا يأخذ شيئاً منها غير ما اختصَّه الله به. ومَنْ يفعل ذلك يأت بما أخذه يوم القيامة، ثمَّ تُعطى كلُّ نفس جزاء ما عملت كاملاً، وهم لا يُظْلَمُون بنقصان ذرَّة منه.

عن عديِّ بن عميرة الكِنْدي رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من استعملناه منكم على عمل، فكَتَمَنا مخيطاً فما فوقه، كان غلولاً يأتي به يوم القيامة»**. قال: فقام إليه رجل أسود من الأنصار كأني أنظر إليه، فقال:

يا رسول الله، اقبل عني عملك. قال: «وما لك؟» قال: سمعتك تقول كذا وكذا. قال: «وأنا أقوله الآن: مَن استعملناه منكم على عمل فليجئ بقليله وكثيره، فما أُوتي منه أخذ، وما نُهِيَ عنه انتهى». (الصحيح ٣/ ١٤٦٥ برقم ١٨٣٣ ـ كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال).

١٦٢ ـ ١٦٣ ـ لا يستوي مَنْ سعى في طلب رضا الله فاستحق الجنَّة، ومَنْ هو واقع في الخطايا مسخط لربِّه فمآله نار جهنم. وقَبُحَ ذلك المرجع، ومنازلهم متفاوتة: فأصحاب الجنَّة لهم درجات عليا، وأصحاب النار لهم دركات سفلى.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها. فقالوا: يا رسول الله، أفلا نُبَشِّرُ الناس؟ قال: إنَّ في الجنة مئة درجة أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ـ أراه قال: وفوقه عرش الرحمن ـ ومنه تفجر أنهار الجنة». قال محمد بن فليح، عن أبيه: «وفوقه عرش الرحمن».

(صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله برقم ٢٧٩٠).

١٦٤ ـ يُخبر الله تعالى مؤكِّداً أنَّه تفضَّل على المؤمنين إذ أرسل إليهم رسولاً عربياً من جنسهم، يقرأ عليهم آيات القرآن ويُطَهِّرهم من المعاصي، ويُعَلِّمهم القرآن والسنَّة، وقد كانوا من قبل البعثة في انحراف وجهل واضح.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ في الآية (١٦٠) إخبار عن أمر مستقبلي: مَنْ كتب الله له النصر فإنَّه لا غالب له، وإخبار مستقبلي من أنه لا أحد يستطيع النصر من دون الله إن أراد له الله الخذلان.

٢ ـ الرحمة والرفق من صفات القائد الحكيم.

٣ ـ قال ابن عاشور: «دَلَّت الآية على أنَّ الشورى مأمور بها الرسول ﷺ فيما عبَّر عنه بـ (الأمر) وهو مهمات الأُمة ومصالحها في الحرب وغيره،

وذلك في غير أمر التشريع؛ لأنَّ أَمْرَ التشريع إن كان فيه وحي فلا محيد عنه». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٦٧).

٤ ـ فضل اللين وحسن تعامل الحاكم مع الرعية.

٥ ـ مبدأ المشاورة بين القائد والرعية أمر في غاية الأهمية.

٦ ـ وجوب التوكل على الله تعالى بعد بذل الأسباب.

٧ ـ النصر من عند الله تعالى مهما بلغ الإنسان من القوة.

٨ ـ تحريم الغلول بكل صوره.

٩ ـ حكم الغالِّ التعزير.

١٠ ـ في الآية (١٦٠) يُربِّي الله تعالى عباده المؤمنين على لزوم الاعتدال عند الانتصار أو الانهزام، ففي الفرح بالنصر يذكرهم ﷻ بأن الفضل منه سبحانه حتى لا يصيبهم الغرور بنشوة الانتصار.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾

١٦٥ ـ سبب النزول:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لما كان يوم أُحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أَخْذِهم الفداء، فقُتل منهم سبعون، وفرَّ أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ فكُسِرَتْ رَباعيته ﷺ، وهُشِّمَتِ البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، وأنزل الله ﷻ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ بأخذكم الفداء».

(أخرجه الضياء المقدسي في المختارة، وصححه محققه). (التفسير الصحيح ٢/ ٩٧).

التفسير:

أجَزِعْتُمْ حين أصابتكم مصيبةٌ يومَ أُحُد بقَتْلِ سبعين منكم، وكنتم قد أصبتم يوم بدر مثلَي ذلك، فقتلتم سبعين وأسرتم سبعين، فقلتم مُتَعَجِّبين: من أين أصابنا هذا الانهزام؟ أجِبْهم أيُّها الرسول: أنَّ ذلك المصاب هو من عند أنفسكم بسبب مخالفة الرسول ﷺ. إنَّ الله وحده على كلِّ شيء قدير يفعل ما يشاء.

١٦٦ ـ ١٦٧ ـ يُبيِّن الله تعالى بعض فوائد الابتلاء يوم أُحد: وما وقع بكم من جراح وقَتْلٍ بقضاء الله وقدره؛ ليتميَّز المؤمن الصادق من الدخيل المنافق، فيفضح المنافقين حين قال لهم المؤمنون: هلمُّوا جاهدوا في سبيل الله، أو كثِّروا سواد المسلمين. فأجابوا: لو نعلم أنَّكم تقاتلون العدوَّ لَقاتلنا معكم. إنَّهم يوم قالوا ذلك هم أقرب إلى الكفر من الإيمان؛ لأنَّهم يُظْهِرُون على ألسنتهم الإيمان ويُضْمرون الكفر في قلوبهم، والله أعلم بما يضمرون في أنفسهم. أي: في غزوة أُحد، وينظر: الآية (١٧٢ ـ ١٧٤) من السورة نفسها.

١٦٨ ـ هؤلاء المنافقون الذين تخلَّفوا يوم أُحد قالوا في شأن إخوانهم في النسب الذين قُتلوا: لو أطاعونا في الرجوع عن القتال ما قُتلوا. ثمّ أمر الله تعالى أن يَرُدَّ عليهم النبيُّ ﷺ: قل فادفعوا عن أنفسكم الموت، إن كنتم صادقين في دعواكم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ قال ابن عاشور: «عُطِفَ الاستفهام الإنكاري التعجيبي على ما تقدَّم، فإن قولهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ مما ينكر ويتعجَّب السامع من صدوره منهم بعد ما عَلِموا ما أتَوا من أسباب المصيبة». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٧٨)

٢ ـ ما يصيب الإنسان من مصائب هو نتيجة أخطائه.

٣ ـ ما يحدث في الكون إنما هو بعلم الله تعالى.

٤ ـ خطأُ مَنْ يعتقد أن القعود عن الجهاد يحميهم من الموت.

٥ ـ الحذر من المنافقين الذين ينبثُّون بين المسلمين في كلِّ زمان.

٦ ـ في الآية (١٦٥) يربِّي الله تعالى عباده رحمة منه وفضلاً على مراجعة

أنفسهم بعد ملاقاتهم العدو بما يجنبهم العودة للأخطاء ذاتها مستقبلاً، بأن ما يصيب المؤمن في ساحة الوغى من انكسار وتقهقر إنما هو من إغواءات النفس الأمارة بالسوء.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ
ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ
ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ
﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا
ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ
ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا
يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن
يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾

التفسير:

١٦٩ ـ ١٧٠ ـ يُبَشِّر الله النبيَّ ﷺ والمؤمنين بأحوال الشهداء ومقامهم عند ربِّهم: ولا تَظُنَّنَّ الذين قُتِلُوا في سبيل الله يوم أُحد من الأموات لا يحسُّون شيئاً، بل هم أحياء في مقام كريم عند ربِّهم، وحالهم في سرور؛ بسبب العطاء الجزيل من كرم الله تعالى، ويستبشرون خيراً بما سيلاقيه إخوانهم المجاهدون الذين فارقوهم أحياء بعدهم، بأنَّهم لا خوف عليهم فيما يستقبلون من أمور الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حطام الدنيا.

١٧١ ـ يفرحون بما حباهم الله به من عظيم نعمه وكريم عطائه، وأنَّ الله لا يضيع ثواب الصادقين بالله ورسوله.

قال الشيخ الشنقيطي: «نهى الله تبارك وتعالى في هذه الآية عن ظن

الموت بالشهداء، وصرَّح بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وأنهم فرحون بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألَّا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، ولم يبين هنا: هل حياتُهم البرزخ يدرك أهلُ الدنيا حقيقتَها أو لا؟ ولكنه بيَّن في سورة البقرة أنهم لا يدركونها بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]؛ لأنَّ نفي الشعور يدل على نفي الإدراك من بابِ أَوْلى كما هو ظاهر».

عن عبد الله بن مُرَّة، عن مسروق قال: «سألنا عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت. ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطَّلع إليهم ربُّهم اطِّلاعةً، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أيَّ شيء نشتهي، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات. فلمّا رأوا أنهم لن يتركوا مِن أن يُسألوا، قالوا: يا رب! نريد أن تُرَدَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا».

(الصحيح ٣/ ١٥٠٢ ـ ١٥٠٣ برقم ١٨٨٧ ـ كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة).

١٧٢ ـ الذين أطاعوا الله ورسوله وخرجوا في أُحُد؛ لتعقُّبِ المشركين إلى حمراء الأسد ـ قرية تبعد عن المدينة (٢٠) كيلاً جنوباً ـ من بعد الهزيمة وقد تَعَرَّضوا لإصابات جراح بالغة، فجزاء مَنْ أحسن من هؤلاء وخافوا الله هو الجنَّة.

عن عائشة رضي الله عنها: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ قالت لِعروة: يا بن أختي، كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر. لما أصابَ رسولَ الله ﷺ ما أصابَ يومَ أُحد، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، قال: مَنْ يذهب في أثرهم، فانتُدِب منهم سبعون رجلاً. قال: كان فيهم أبو بكر والزبير.

(صحيح البخاري ٧/ ٤٣٢ برقم ٤٠٧٧ ـ كتاب المغازي، باب ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية).

١٧٣ ـ هؤلاء المطيعون لله ولرسوله هم الذين قال لهم مرجفو المشركين: إنَّ قريشاً قد حشدت لكم جيشاً لقتالكم فاحذروهم، فزادهم هذا الإرجاف تثبيتاً وتصديقاً بوعد الله لهم، وقاموا بواجبهم، وقالوا: الله كافينا وحافظنا، ونِعْمَ الوكيلُ في نُصْرة أوليائه.

١٧٤ ـ ولمَّا رأى المشركون هذه العزيمة من المؤمنين على مواصلة الجهاد جَبُنوا عن اللقاء، فعاد المؤمنون بنعمة وسلامة ولم يتعرَّضوا لمكروه، وسلكوا بذلك طريق رضاء الله. والله ذو فضل عظيم عليهم وعلى المؤمنين.

١٧٥ ـ يُحَذِّر الله المؤمنين من الذين يخوِّفونهم بأعدائهم المشركين؛ ليجبُنوا، فأولئك ليسوا إلا أعواناً للشيطان، فلا تخافوا المشركين، وخافوا الله وحده إن كنتم مصدِّقين به.

١٧٦ ـ لا تحزن ـ أيُّها الرسول ـ من المنافقين والكفَّار الذين يُبادرون إلى التكذيب بالله والتشكيك في الدين، إنَّهم بذلك لن يَضُرُّوا الله شيئاً، بل يريد الله ألا يجعل لهم نصيباً من ثواب الآخرة، ولهم عذاب شديد مؤلم.

١٧٧ ـ إنَّ الذين استحبُّوا الكفر على الإيمان لن يَضُرُّوا الله شيئاً، ولهم عذاب موجع.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ حقيقة فضل المجاهدين الذين قتلوا في سبيل الله تعالى، وأنَّهم أحياء عند ربِّهم.

٢ ـ بشرى للمجاهدين الذين قُتلوا في سبيل الله أنهم لا يعرفون الخوف والحزن.

٣ ـ من عدل الله ﷻ أنَّه لا يضيع أجر المؤمنين، بل يُنَمِّيه لهم في الآخرة.

٤ ـ بيان فضل الصحابة الذين استجابوا لنداء رسول الله ﷺ للقاء المشركين.

٥ ـ التحذير من تخويف الشيطان وإغوائه.

٦ ـ الذين اختاروا الكفر لا يضرُّون إلا أنفسهم بالعذاب الموجع.

٧ ـ يعلِّمنا الله تعالى كلمة (حسبنا الله ونعم الوكيل)، وهي كلمة عظيمة تقال عند الشدائد.

٨ ـ ينظر: خريطة موقع غزوة حمراء الأسد، كما في الملحق.

٩ ـ قال ابن عاشور في الآية (١٧٧): «تكرير الجملة ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ قُصِدَ به مع التأكيد إفادة هذا الخبر استقلالاً للاهتمام به بعد أن ذكر على وجه التعليل لتسلية الرسول». (التحرير والتنوير: ٣/ ٢٨٩).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

التفسير:

١٧٨ ـ ولا يظنَّنَّ الكفَّار أنَّما نمهلهم بدون عذاب، وإنَّما نُمْهِلُهم ونُؤَخِّر عذابهم؛ ليكتسبوا مزيداً من المعاصي، فتزداد آثامهم وعقوباتهم بالعذاب المُذلِّ.

قال الشيخ الشنقيطي: «ذُكِرَ في هذه الآية الكريمة أنه يُمْلي للكافرين ويمهلهم لزيادة الإثم عليهم وشدة العذاب، وبيَّن في موضع آخر: أنه لا يمهلهم متنعِّمين هذا الإمهال إلا بعد أن يَبْتَلِيَهم بالبأساء والضراء، فإذا لم يتضرعوا أفاض عليهم النعم وأمهلهم حتى يأخذهم بغتة، كقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا

فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤ ـ ٩٥]، وبيَّن في موضع آخر أن ذلك الاستدراج من كيده المتين، وهو قوله: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤ ـ ٤٥].

١٧٩ ـ ما كان الله ليتركَكم ـ يا معشر المؤمنين ـ على ما أنتم عليه من التباس المؤمن منكم بالمنافق، حتى يميز المنافق من المؤمن، وما كان من حكمة الله أن يطلعكم على الغيب، ولكنَّ الله يصطفي من رسله مَنْ يشاء، فيطلعهم على ما يشاء من غيبه، فآمنوا بالله ورسله جميعاً، وإن تؤمنوا وتخافوا الله فجزاؤكم الجنَّة.

١٨٠ ـ ولا يظنَّنَّ الذين يبخلون بما أعطاهم الله من كرمه هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم؛ لأنَّ ذلك المال الذي جمعوه سيكون طوقاً من نار في أعناقهم يوم القيامة. ولله جميع ما يتوارثه أهل السموات السبع والأرض من مال وغيره. والله بكل ما تعملون خبير لا يخفى عليه شيء.

١٨١ ـ سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسنديهما الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه بيت المِدْراس، فوجد من يهود ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فنحاص، كان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر يقال له أشيع. فقال أبو بكر رضي الله عنه لفنحاص: ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، قال فنحاص: والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنَّا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا. فغضب أبو بكر، فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت عنقك يا عدوَّ الله، فاكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين. فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد،

انظر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «ما حملك على ما صنعت؟» فقال: يا رسول الله، إنَّ عدو الله قال قولاً عظيماً، زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، فضربت وجهه. فجحد ذلك فنحاص وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله تبارك وتعالى فيما قال فنحاص، ردّاً عليه وتصديقاً لأبي بكر: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾. (التفسير الصحيح ٢/ ١٠٥).

التفسير:

يفضح اللهُ كَفَرَة اليهود، إذ يؤكِّد أنَّه سمع قولهم الشنيع: إنَّ الله فقير ونحن أغنياء. سنكتب هذا القول في صحف أعمالهم، وأنّهم يَسْتَحِلُّون قَتْلَ الأنبياء ظلماً بغير حقٍّ، وسنعاقبهم ونُوَبِّخهم على ذلك، ونقول لهم وهم في العذاب: ذوقوا عذاب نار جهنَّم المحرقة.

١٨٢ ـ ذلك العذاب الشديد بسبب اقترافهم الجرائم والكبائر، وأنَّ الله عادل في عقابه، لا يظلم أحداً من عباده.

١٨٣ ـ ١٨٤ ـ إنَّ اليهود الذين زعموا: إنَّ الله أمرنا ألَّا نصدِّق رسولاً حتى يأتينا بصدقة فتنزل نار من السماء تحرقها. ثمَّ أمر الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ أن يردَّ عليهم موبِّخاً: قد جاء أسلافكم رسل من قبلي بالمعجزات وبالذي ادعيتم، فلِمَ كَذَّبتموهم وقتلتموهم إن كنتم صادقين في دعواكم؟ فإن كَذَّبوك فلا تحزن؛ لأنَّ هذا دأبُهم مع المرسلين السابقين إذا أتوا بمعجزات عظيمة وكتب واضحة.

١٨٥ ـ يُخبر الله تعالى أنَّ كلَّ نفس مصيرها الموت ثمَّ تُبعث يوم القيامة لتأخذ حَقَّها تامّاً، فمَنْ أُبعد عن النار وأُدخل الجنَّة فقد أفلح، وليست الدنيا إلا متعة زائلة يزيِّنها الشيطان؛ ليغترَّ بها الناس.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ إنَّ الله يمهل الكافرين، ولا يهملهم.

٢ ـ ابتلاء الله عباده؛ لينفضح المنافق، ويتبيَّن الصادق في دينه.

٣ ـ وجوب الإيمان برسل الله تعالى.

٤ ـ ذمُّ البخل، والحثُّ على الإنفاق في سبيل الله تعالى.

٥ ـ تكذيب أحبار اليهود الذين ادَّعوا أنَّ الله عهد إليهم ألَّا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان.

٦ ـ حقيقة الموت أنَّه نهاية كلِّ إنسان.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾

التفسير:

١٨٦ ـ يكشف الله تعالى للمؤمنين أمراً غيبياً مؤكَّداً بالقسم، وسيقع في المستقبل: إنَّه سيأتيكم الامتحان في نقص الأموال، وفي النوازل التي تصيب الأنفس، وسوف تسمعون من اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين الأذى الكثير من الإشاعات والكلام السيئ، وإن تصبروا على ذلك الأذى، وتخافوا الله بلزوم طاعته، فإنَّ ذلك من الأمور الصالحة التي يجب العزم على تنفيذها.

١٨٧ ـ يُذكِّر الله تعالى المؤمنين بنقض اليهود والنصارى العهود، حين أخذ الله عليهم العهد بأن يُوَضِّحوا للناس ما في التوراة والإنجيل من الأحكام، ولا يكتموا ذلك، فنقضوا العهد، وحَرَّفوا كتبهم، فاستعاضوا بذلك حُطام الدنيا الزائل، فبئس تلك التجارة الخاسرة.

١٨٨ ـ سبب النزول:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسولُ الله ﷺ إلى الغزو تخلَّفوا عنه، وفَرِحُوا بمقعدهم

خلاف رسول الله، فإذا قدم رسولُ الله ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبُّوا أن يُحْمَدُوا بما لم يَفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ الآية.

(صحيح البخاري ٨/ ٨١ برقم ٤٥٦٧ ـ كتاب التفسير ـ سورة آل عمران، باب ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾، وصحيح مسلم ٤/ ٢١٤٢ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم).

التفسير:

ولا تَظُنَّنَّ ـ يا محمَّد ـ الذين يفرحون بما أتوا من كتمان الحقِّ وغيره، ويحرصون على مدح الناس لهم بما لم يفعلوا، فلا تظنَّهم قد نجوا من عذاب النار، بل لهم عذاب موجع.

عن مروان قال: اذهب يا رافع ـ لبوَّابه ـ إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ منَّا فرح بما أَتَى، وأحبَّ أن يُحمد بما لم يفعل، مُعَذَّباً، لَنُعَذَّبنَّ أجمعون، فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية؟ إنما أُنزلت هذه الآية في أهل الكتاب. ثم تلا ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ هذه الآية، وتلا: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾، وقال: سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إيَّاه، وأخبروه بغيره. فخرجوا قد أَرَوه أن قد أخبروه بما سألهم عنه. واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أَتَوا، من كِتمانهم إياه، ما سألهم عنه.

(صحيح مسلم ٤/ ٢١٤٣ برقم ٢٧٧٨ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم. وصحيح البخاري ـ التفسير ـ باب ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ برقم ٤٥٦٨).

١٨٩ ـ ولله وحده ملك السموات السبع والأرضين السبع وما فيهما. والله وحده على كلِّ شيء قدير، ومَنْ كان في ملكه كان في قبضته. وينظر: سورة البقرة الآية (١١٧).

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ في الآية (١٨٦) إخبار عن أمر مستقبلي في ابتلاء الله تعالى للمؤمنين في أموالهم وأنفسهم، وأنَّ المؤمنين سيسمعون من الذين أوتوا الكتاب والمشركين أذىً كثيراً.

٢ ـ عظمة الصبر على الابتلاء، وأنَّه من عزم الأمور.

٣ ـ تحريم كتمان العلم، ووجوب بيانه.

٤ ـ التحذير من طلب الثناء للعبد على عمل لم يفعله العبد.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ
يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ
هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا
لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ
رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا
عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ
عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ
وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

التفسير:

١٩٠ ـ إنَّ في إبداع السموات والأرض، وفي تعاقُب الليل والنهار بانتظام لَدلائلَ واضحة على وحدانية الله وعظمته لأصحاب العقول السليمة.

١٩١ ـ ومن صفات هؤلاء: أنَّهم يُكْثِرُون من ذكر الله في جميع أحوالهم، قائمين في صلاتهم، وقاعدين ومضطجعين على جنوبهم، ويتدبَّرون في إيجاد وإبداع السموات والأرض، ويَدْعُون الله: يا ربَّنا ما أَوْجَدْتَ هذه المخلوقات عبثاً من غير حكمة سبحانك، فاحفظنا من عذاب النار.

١٩٢ ـ ١٩٤ ـ يُعَلِّم الله المؤمنين كيف يَدْعُونه: يا خالقَنا إنَّك مَنْ تدخله النار من عبادك بسبب الذنوب فقد أذللته، وليس للمعتدين مَنْ يُخَلِّصهم من العذاب، يا ربَّنا إنَّنا سمعنا داعياً يدعو إلى الإيمان ـ وهو رسول الله محمَّد ﷺ ـ أن صدِّقوا بخالقكم، فاستجبنا وصَدَّقْنا، يا ربَّنا فلا تؤاخذنا بذنوبنا، وتجاوَزْ عن معاصينا، وأمِتْنا مع الصالحين، يا ربَّنا أَنْجِزْ لنا ما وعدتنا على

ألسنة رسلك من نصر ورحمة، ولا تُذِلَّنا يوم العرض عليك، قد علمنا أنَّك لا تخلف الوعد.

١٩٥ ـ سبب النزول:

عن أُم سلمة رضي الله عنها قالت: «يا رسول الله، لا أسمع اللهَ ذَكَرَ النساء في الهجرة بشيء؟» فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾. (أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٠٠. وصححه ووافقه الذهبي).

التفسير:

ثمَّ أجاب الله تعالى هؤلاء الداعين: بأنِّي لا أضيع جهد من عمل عملاً صالحاً ذكراً كان العامل أو أنثى، فالأنثى من الذكر، والذكر من الأنثى، وهم في أخوَّة، ينصر بعضهم بعضاً، فالذين هاجروا من بلادهم وألجأهم الكفَّار من ديارهم، ونالهم الأذى في سبيلي، وقاتلوا أعدائي وقُتِلوا في سبيلي لأمحونَّ عنهم ذنوبهم، ولَأُدخلنَّهم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار العذبة، جزاءً كريماً من فضل الله، والله وحده عنده حسن الجزاء وهو الجنَّة.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ الثناء على المؤمنين الذين يتفكَّرون في خلق السموات والأرض، ويدعون الخالق.

٢ ـ وجوب التفكُّر في خلق السموات والأرض؛ لمعرفة عظمة الله تعالى.

٣ ـ فضل الدعاء والبشرى باستجابة الله تعالى.

٤ ـ قال ابن عاشور: «دَلَّت الفاء على سرعة الإجابة بحصول المطلوب، ودَلَّت على أنَّ مناجاة العبد رَبَّه بقلبه ضرب من ضروب الدعاء قابل للإجابة». (التحرير والتنوير: ٣/ ٣١٣).

٥ ـ جزاء الله تعالى على الأعمال الصالحة من المؤمنين والمؤمنات، فلا فرق بينهم في ذلك.

٦ ـ مكانة المرأة وكرامتها في الإسلام.

٧ ـ في الآية (١٩٠) دعوة لتربية العقل على التدبر والتأمل في خلق الله تعالى وملكوته.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

التفسير:

١٩٦ ـ ١٩٧ ـ لا يخدعَنَّك تَنَعُّمُ الكفَّار في ملذَّات الدنيا ونشاطهم ورحلاتهم في البلاد، فإنَّهم يتمتَّعون بذلك قليلاً، ثمَّ يزول، ثمَّ مصيرهم إلى جهنَّم، وبئس القرارُ نار جهنَّم.

١٩٨ ـ ذلك جزاء الكافرين، أمَّا الذين خافوا ربَّهم بالتزام طاعته فجزاؤهم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار العذبة، ماكثين فيها أبداً، مكرمين بفضل من عند الله، وما عنده من الثواب للمطيعين الأخيار أفضل وأكرم ممَّا يتمتع به الكفَّار.

١٩٩ ـ سبب النزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لـمَّا مات النَّجاشي، قال النبي ﷺ: «**استغفروا لأخيكم**». فقال بعضُ الناس: تأمرنا أن نستغفر له وقد مات بأرض الحبشة؟ فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾.

(أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٣/ ٣٢٣ برقم ٢٦٨٨، والضياء المقدسي في المختارة ٥/ ٤٠ ـ ٤١ برقم ١٦٤٨، ١٦٤٩). وقال الهيثمي: رواه البزار والطبراني ورجال الطبراني ثقات. مجمع الزوائد ٣/ ٣٨).

التفسير:

يُثني الله تعالى على طائفة من اليهود والنصارى من الذين يُصَدِّقون بالله وبالقرآن وبالتوراة والإنجيل متذلِّلين لله، لا يُحَرِّفون حكماً، ولا يكتمون

علماً، لعرضٍ خسيس من متاع الدنيا. أولئك أصحاب الدرجات العالية لهم مقام كريم وثواب عظيم عند ربِّهم. إنَّ الله سريع الحساب لجميع الناس.

٢٠٠ ـ يُنادي الله تعالى المؤمنين: اصبروا على فعل الطاعة وتَرْكِ المنكرات، وغالِبُوا أعداءكم بالصبر على شدائد الحرب، ولازموا ثغوركم لحمايتها من الاعتداء، وخافوا الله؛ لكي تفوزوا بالفلاح في الدنيا بحياة طيبة، وفي الآخرة بجنَّة عظيمة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«ألا أدلُّكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟»** قالوا: بلى يا رسول الله! قال: **«إسباغ الوُضوء على المكاره، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط»**. (الصحيح ١/ ٢١٩ برقم ٢٥١ ـ كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره).

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ مهما بلغ تَنَعُّم الكفَّار في الدنيا فهو متاع لا يستحقُّ الاكتراث به؛ لأنَّه زائل وقليل مقابل نعيم الآخرة الدائم.

٢ ـ الثناء على بعض أهل الكتاب من المؤمنين الخاشعين لله تعالى.

٣ ـ وجوب الصبر على إقامة الطاعات، وحماية البلاد من الأعداء.

٤ ـ تقرير شرعة الحساب في نيل العقاب والثواب.